

شبهاء وابطال الخصم الاسلامي

والدعوت

الشيخ الامام داعية الاسلام
محمد متولي الشعراوي



جمع واعداد ترتيب
عبد الفتاح احمد عطفا

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الاسكندرية

الشيخ الإمام دأية الإسلام
مجلد منقول الشيخ عرو

شبهاء الأباطيخ من الأعلام والدرع عليها

جمع وإعداد وترتيب
عبد القادر أحمد عطا

مكتبة التراث الإسلامي
١٤ شارع صفية زغارول - قصر البني القاهرة

حقوق الطبع والنشر محفوظة
للمنشر

مكتبة التراث الإسلامي

القاهرة
عبدالله بن محمد

٣٥٥٣٨٣٨ ت

الكتاب والمؤلف

(١) الكتاب . . .

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله ، الرحمة المهداة إلى الناس كافة :
أما بعد :

فلقد وفقني الله تبارك وتعالى إلى اخراج هذا العمل الجليل ، لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى حفظه الله وأيده بنصر منه ، وذلك بعد أن أعده وهياه للنشر الأستاذ الفاضل عبد القادر أحمد عطا .

وأقول وفقني الله تبارك وتعالى إلى إخراجه لما فيه من الأمور الخطيرة التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يكونا على علم وبينة منها ، فنحن في عصر اشتد فيه الكيد للإسلام والمسلمين واتهم الإسلام ورسوله بتهم هما منها براء .

{ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذباً } (١)
وللأسف الشديد فإن واقع المسلمين وحالهم يدعو للأسى والألم ويزيد من مرارة تلك التهم .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً) . ولكن في هذه الغربة دائماً الطائفة الناجية المنصورة بإذن الله تحمل مشعل الحق لتنير للأمة طريقها وترشدّها إلى سواء السبيل .

وإمامنا فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى حمل بيده الكريمة مشعل الحق وأثار الطريق وكشف عن أباطيل وتهم دبّرت في الخفاء للنيل من الإسلام وأهله .

{ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين } (٢)

{ وما يعلم جنود ربك إلا هو } (٣)

(١) سورة الكهف، آية : ٥ .

(٢) سورة الانفال ، آية : ٣٠ .

(٣) سورة المدثر ، آية : ٣١ .

قرأت ذلك الكتاب مرة ومرات ثم تراءى لى أن يكون هذا الكلام بين
دفتى غلاف يحمل صورة للشيخ الشعراوى وهو يدك رؤوس الإلحاد والكفر
لأنه- أى هذا الكتاب - هدم لكل المعتقدات الخاطئة التى يشيعها المستشرقون
والشيوعيون والإلحاد فى كل زمان ومكان .

ولكن كيف يكون ذلك وشيخنا هو إمام الداعين إلى الله بالكلمة الطيبة ،
والموعظة الحسنة ، والأمر بالمعروف ، ويشجب العنف فى القول والعمل ،
ونحن معه على ذلك إن شاء الله .

و ذات ليلة وأنا أتصفح الكتب المطبوعة للشيخ الشعراوى وجدت
مقالة كريمة عظيمة لفضيلته عن انتشار الإسلام وموضع القوة فى ذلك -
وجدت فيها ما نصه :

(فالإسلام حين ينشر مبادئه ويجد قوة من قوى الطغيان تحاول أن ترد
المسلم عن قبول دعوته وعن الدعوة إلى الله ، فلنا أن نقف أمام هذه القوة
وأن ندكها دكاً) .

ولما كان فى هذه المقالة من بيان شاف لموضوع هو من جملة الأمور
التي يشكك فيها المشككون أحببت أن أنقلها بالكامل بنصها ، لعل الله يشرح
صدور الناس لها ويهديهم إلى الحق بإذنه إنه على ما يشاء قدير .

* * *

نص كلمة الشيخ الشعراوى منقولة من كتاب (الإسلام حداثه وحضارة)
للشيخ الشعراوى طبع دار العودة بيروت سنة ١٩٨٢ . صفحات (٢٣١، ٢٣٢)

« قضية القوة فى الإسلام قضية موضوعة لمهمة ، إلا أننا فى آخر عهدنا
قد وجهنا المهمة وجهة أخرى ، هذه الوجهة هى ما أراد أعداؤنا أن يقنعونا
بها ، قالوا : إن الإسلام انتشر بالسيف ، فأحب المسلمون أن يردوا ذلك ،
فقالوا : لا ، إن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، والسيف لم يستعمل إلا دفاعاً

عن النفس ، وبعد ذلك ، جاء المسلمون وأعجبهم تلك الفكرة من أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، ولكنهم ما فطنوا إلى خبث هذه الدعوة .

خبث هذه الدعوة نشأ من ماذا ؟ .

نشأ من خوف خصوم الإسلام أن يحقق الإسلام المراد من وجوده في الأرض ليظهر على الدين كله ، ومعنى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ : إن مهمته إثبات الرشد للإنسانية كلها ، هم يريدون للإسلام أن يكتفى بالبقعة التي هو فيها ، ولا يفكر تفكيراً طموحياً في أن ينساح ليجعل كلمة الله هي العليا ، فيقولون : الإسلام جاء للدفاع فقط ، وما دام جاء للدفاع فقط فليس له أن يتعدى سائر الحدود .

تلك كلمة لها بريق ، تبرئ الإسلام من البتر بالسيف ، ولكنها تعوق الإسلام عن مده الذي أراد الله له ، لأن الإسلام ما جاء لينشئ أمة واحدة في الأرض ، وإنما جاء ليعمم عدالة السماء في الأرض كلها ، ولكنه لا يفرضها فرضاً ، إذن ، فما دام لا يفرضها ، فماذا يكون الموقف ؟ .

إنه إن فرضها فرضاً بقوته — إن كان يملك قوة الفرض للعقائد — فإنه قد استولى على القوالب ، والإسلام لا يريد أن يستولى على قوالب ، وإنما يريد أن يستولى على قلوب ، لأن الاستيلاء على القوالب يحكم ظاهر الأشياء ، ولكنه لا يحكم خفيات الأشياء ، فقصارى أن تملك القالب والشكل ، أن صاحب القالب والشكل يحاول ألا تراه منحرفاً عن منهج الحق ، فإذا ما خلا له الجو ، أو إذا استطاع أن يستتر بجرمه فإنه يفعل .

لماذا ؟

لأنك لم تملك قلبه ، وإنما ملكت قلبه ، فقال به هو موضوع الحساب والجزاء .

لذلك وضع الحق مبدأ في انسياح الإسلام ، فقال :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (١) .

ما دام لا إكراه في الدين ، فكيف تريد أن يمتد الإسلام إلى رقع أوسع ؟

نقول :

إن الذي يمنع منطق عدالة الإسلام هو قوى الطغيان في الأرض ،
فالإسلام حين ينشر مبادئه ويجد قوة من قوى الطغيان تحاول أن ترد المسلم
عن قول دعوته وعن الدعوة إلى الله ، فلنا أن نقف أمام هذه القوة ، وأن
ندكها دكاً ، وبعد ذلك نترك الناس أحراراً ليروا رأيهم بحرية وبمحض
اختيار . فلا فرض لعقيدة .

ولذلك نجد الإسلام حينما فتح بلداً من البلاد ، أحمل كل أهله أن
يسلموا ؟ ، أم ظل فيهم من ظل على دينه ؟ .

فلو أن الإسلام جاء لينشر بالسيف ، فإن معنى ذلك : أن كل بلد
فتحه الإسلام كان ولا بد أن يسلم أهله ، ولكننا نجد كثيراً من البلاد المفتوحة
ظل أهلها على دينهم ، ولا حرج عليهم .

* * *

لذلك كان شكل الغلاف على ما هو عليه الآن ليس عنفاً ولا تعسفاً
في الدعوة ، وإنما هو استخدام للقوة في موضعها لإزالة رؤوس الكفر والإلحاد
وللتخلية بين الناس ودينهم ، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .
هدانا الله إلى ما فيه صالح أمتنا الإسلامية ورفع رايها خفاقة .

وجزى الله شيخنا عن الإسلام وأهله خير الجزاء . . .

(٢) المؤلف

من سنن القرآن أن نعلم حجج الكفر ، ونعلم الرد عليها ، ونعمل على
هذا المنهج في الدعوة إلى الله .

وفنون الكفر تختلف في كل عصر عن العصر الذي سبقه وهذا طرف
من المؤامرة العالمية على الإسلام .

والمؤامرة على الإسلام قديمة قدم الإسلام نفسه ، تشتد حيناً وتخبو حيناً آخر ، ومن أراد أن يعرف الكثير عن ذلك فليرجع إلى كتب المستشرقين وردود علماء الإسلام عليها. ففيها الحق العظيم على الإسلام وأهله ، والحمد لله لو أن أحداً بيده أمر هذا الدين لكان على الدين السلام ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو وحده المتكفل بحفظه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) . .

ومن حفظ الله لهذا الدين أنه يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة الإسلامية أمر دينها ويوقظها من سباتها العميق .

وفضيلة الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى حفظه الله ومتعته بالصحة والعافية من مجددى هذا القرن من الزمان ، وفقه الله ، وشرح صدره ، وألمه رشده ، وأبان على لسانه الكثير والكثير ، وبأسلوب هقتدر لا أقول ساحر بل هو صادق. والصدق عندما يلامس القلوب يفعل فيها ما هو أشد من السحر ، وأكثر .

هذا إلى تطابق حياته الكريمة مع أقواله العظيمة فهو ينفق في الخير بإيمان من لا يخشى الفقر ولا يترك مناسبة لخدمة البلاد والعباد إلا ويجود بماله فيها ضارباً بذلك المثل والقدوة الحسنة للداعية المسلم الراشد .

كما أن حياة الزهد التى يعيشها هى أيضاً مثل أعلى لكل من أرادوا الدار الآخرة وباعوا أنفسهم لله - وزهده عن ورع لا عن فقر وهذا سر عظمتة ، حفظه الله .

أردت بهذه الكلمات القليلة أن أتقدم بين يدي هذا الكتاب العظيم وكنت أود أن يكون التعريف بمؤلفه فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى هو فاتحة القول فى هذا الكتاب حتى يعلم الناس عن شيخهم وإمامهم اليسير من فضله الكثير ، خاصة وأن الناس كل الناس يحبون الشيخ ويجلونه ويتلهفون على محاضراته ، وأحاديثه وكتبه ، لما فيها من خير كثير وبيان شاف يعالج أمراض العصر الذى نعيشه .

الشيخ الامام داعية الاسلام
محمد متولى الشعراوى

- * من مواليد أوائل ابريل سنة ١٩١١ م . بقرية دقادوس مركز ميت غمر محافظة الدقهلية .
- * حفظ القرآن في قرية وتلقى التعليم في معهد الزقازيق الدينى الابتدائى .
والثانوى ، ثم التحق بكلية اللغة العربية .
- * حصل على الشهادة العالمية سنة ١٩٤١ م .
- * حصل على شهادة العالمية « الدكتوراه » مع إجازة التدريس سنة ١٩٤٣ .
- * عين مدرساً بمعهد طنطا الأزهرى وعمل به ، ثم نقل إلى معهد الإسكندرية
ثم معهد الزقازيق .
- * أعير للعمل بالسعودية سنة ١٩٥٠ م . وعمل مدرساً بكلية الشريعة
بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة .
- * عين وكيلاً لمعهد طنطا سنة ١٩٦٠ م .
- * عين مديراً للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف سنة ١٩٦١ م .
- * عين مفتشاً للعلوم العربية بالأزهر سنة ١٩٦٢ م .
- * عين مديراً لمكتب الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون سنة ١٩٦٤ م .
- * عين رئيساً لبعثة الأزهر في الجزائر سنة ١٩٦٦ م .
- * عين أستاذاً زائراً بجامعة الملك عبد العزيز — كلية الشريعة بمكة المكرمة
سنة ١٩٧٠ م .

- عين رئيساً لقسم الدراسات العليا بجامعة الملك عبد العزيز سنة ١٩٧٢ م .
 - عين وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٧٦ م .
 - عين عضواً بمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٠ م .
 - اختير عضواً بمجلس الشورى سنة ١٩٨٠ م :
 - يقوم بمهمة الدعوة الإسلامية على أوسع نطاق أطل الله لنا عمره :
- عبد الله حجاج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يتعرض العالم الإسلامي بوجه عام ، والعربي بوجه خاص لهجمة ضارية ومكثفة أفقدت العرب والمسلمين توازنهم ، فترنحوا تحت وطأتها حيارى ، كما يحار السكارى والمخدرون لا يدرون يومهم من أمسهم ، ولا شرقهم من غربهم . . . وتردى المعلمون والموجهون بين تلك الحفر والوهاد والتتواءات التي أحدثتها تلك الهجمات في بناء المجتمع هم الآخرون ، حتى عز الوصول إلى الحق ، وثار حوله الجدل العنيف الذي يصل في بعض الأحيان إلى استعمال السلاح في مقابلة العلم والمنطق والعقل .

وظواهر هذا الهجوم الشرس كثيرة ومتباينة تكاد العقول الواعية تفضل بين دروبها ومنعطفاتها ، حتى تستسلم إلى حالة من « الحيرة » القاتلة ، لطول ما تعاني من أزمة الإقناع ، وعدم الرغبة في السماع من أولئك الذين احتوتهم هجمات التخريب ، فجعلتهم من أنصارها الفدائيين ، فانكشف العقل بين تضجيج الحناجر الصاخبة ، وروائح الفتنة الصاخبة ، يتلمس الطريق إلى الخلاص ولا خلاص .

ومن ظواهر هذه الهجمات وتناقضاتها : إفساح المجال للاتجاهات الإلحادية الجاحدة ، لتكون عملاً فعالاً في عضوية الأمة باسم الديمقراطية ، وغزو القيم التراثية ومحاولة تحطيمها بإفساد المزاج الإسلامي والعربي ، وذلك تحت تأثير الفنون المستحدثة ، مثل « الجيز » و « الأوبرا » و « الباليه » ونشأ عن كل ذلك لون من الفن والموسيقى قصده به أولاً وأخيراً تمييع الشخصية العربية ، ووضعها في حالة من حالات الضياع بين ما هو عربي وما هو غربي فلا تستطيع أن تعود إلى عروبته ، ولا أن تندمج في غربيته ، فتبقى مسخاً مشوهاً لا يصلح لحضارة ينتسب إليها ، ولا مجموعة عمل يعمل من خلالها : كل ذلك مع تحفظاتنا في هذا الموضوع من حيث الحلال والحرام ، وإنما نحن نروى واقعاً مجرداً واضحاً لكل ذي عينين .

ومن تلك الظواهر : تلك الدعاية المسمومة والمكثفة في جميع وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة لرياضة البدن بشكل لا يتوازن مع رياضة العقل . وأصبحت شعوب الإسلام كلها مترددة بين لاعب ، أو هاو ، أو مشجع عنيف شرس ، فكأنه يقيم الدليل القاطع بشراسته على أنه في حالة من الفهم والوعى لا تؤهله لأن يكون رياضياً حسب اصطلاح عليه رجال هذا الفن من تقبل الهزيمة والنصر بروح واحدة . . . وماذا تصنع شعوب لا تقع عيونها ، ولا يطرق آذانها ، ولا يصبك مشاعرها ، صباح مساء إلا صنوت البطولات الرياضية ، وضجيج الألعاب الكروية المقلق والمثير للمشاعر ، والصحف الرياضية المستقلة ، بالإضافة إلى الصفحات الكاملة من الصحف القومية . . . ماذا تصنع شعوب جاهلة غارقة في الأمية أمام هذا الزحف العجيب إلا أن تستسلم بكليتها إلى هذه البدعة الوافدة ، فتراها كل آمال الحياة ، وكل وسائل النجاح ، وكل مقاييس العظمة ، وقد كان ذلك إلى أن عشنا حتى نرى من ينتحر فداء لهزيمة ناديه المفضل ، وإلى أن يعرض علينا في « التلفزيون » صورة أب أبله تافه العقل يعرض علينا في فخر مريض صورة ابنته البالغة من العمر ست سنوات ، وقد أصابها الشلل ، لأن ناديه المفضل قد هزم في كرة القدم ، ولك يا أخى القارئ أن تتصور تلك البيئة التي تعيشها تلك الابنة المحبى عليها من أبيها وأُمها وإخوتها ، لأنها لم تصل إلى تلك الحالة النفسية المتخلفة من فراغ أبداً .

ومن تلك الظواهر بدعة « النجومية » . وإطلاق اسم « النجم » على نوعيات معينة من الناس لا تستحقه ، وتحريف لقب « النجم » عن أصله الذى وضع له في شريعة الإسلام ، وتلويث هذا اللقب بنسبته إلى أهل الدعارة والمتاجرين بالشرف والمتاجرات . .

وأصل هذه التسمية ، ما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » . فإذا بهذا اللقب وهذا الاقتداء وهذا الاهتداء يتحول في عقول المسلمين إلى هذا الجو العفن الخائق الذى يروج بالرديلة ، وينضج بالكذب ، ويتميع في أجوائه الرجال ، وتسترجل

النساء ، وتطالعنا أجهزة النيابة العامة كل يوم من جحوره بكل غريب من السلوكيات والأثم تقف منهم موقف الإعجاب ، والصحف تتبع مبادئهم وكأنهم خفايا التاريخ .

ومن المؤسف أن يصطنع قراء القرآن سمات نجوم الكذب والتمثيل والرديلة ، فيبدو الواحد منهم في صورة من اللباس الإسلامى ممسوخة ، تفيض بالميوعة والابتذال ، كما يبدو هو في صورة أشد مسخاً وميوعة مما لبس على جسده ، وبعد ذلك يسهر الليالى يلحن القرآن على آلات الموسيقى ، ويجدد نفسه كل يوم ويدربها على كل مثير من مواطن الوقف والابتداء غير المشروعة ، حتى يثير حناجر السامعين بالضجيج وهم يسمعون القرآن ، ليبقى هو الأوحى « نجم القرآن » شأنه فى ذلك شأن « نجم الكرة » و « نجم المسرح » و « نجم السينما » . وما أكثر النجوم المظلمة فى عصرنا .

ولانى أعلن كما أعلنت فى كتابى « هذا حلال وهذا حرام » أن أول من تغنى بالقرآن عبد اسمه : « الهيثم » حبسه سيده فى السجن ، وكان هذا العبد مأبوناً ، وحلف ألا يطلقه حتى يقرأ القرآن ، فقرأه ملحناً على صورة الغناء ، فأطلقه من السجن . . فهذا هو رائد الغناء بالقرآن فى التاريخ .

ومن الظواهر كذلك صور المادية التى يدعو إليها الإعلام فى صورة مغلفة بالدعوة إلى الفضيلة ، صورة هزيلة من الفضيلة تبطن صورة واضحة آسرة من الدعوة للمادية ، وأن كل شىء فى الدنيا هو « الفلوس » . . وكانت بركات هذه الدعوة التى تبناها النجوم بأمر سادتهم وسماسة سادتهم هو ما نراه من خراب الدم ، وجشع التجار ، وبيع الأعراض ، ودياثة الرجال ، وضياح الشباب ، والإعلان عن اختفاء الفتيات ، وتحطيم دعائم الأسرة ، وتمرد الزوجات .

ومن الظواهر المضحكة عند كل ذى بصيرة ما نشهده فى عالم الثقافة من استعباد لكل أجنبي من الثقافات ، حتى لم يخل كتاب جامعى عربى من حروف إنجليزية أو فرنسية تزينه ، ولا يعد الأستاذ أستاذاً إلا إذا كان

هكذا عبداً لتلك الحروف الأجنبية ، ولو جاء بها لغبر فائدة : ، وقد سرى هذا الداء إلى شيوخ لا يعرفون من اللغات الأجنبية حرفاً واحداً ، فنقلوا ما عندهم من بعض الكلمات ، حتى ينطبق عليهم ما انطبق على أقرانهم من وصف « العلماء المستنيرين » العارفين بثقافات الغرب أو الشرق .

وأشهد بالله لقد توقف بعض الأساتذة في رسالة للدكتوراه تقدم بها طالب ، حتى يرصعها الطالب بهذه الكلمات وتلك النصوص . . . فلما واجهه الطالب بأنه لا يعرف لغة أجنبية ، قال له الأستاذ « أريد صورة لغة أجنبية فقط » .

ولعل الداء قد وضع أمامك يا أخي القارئ ، ولعلك تنظر إلى هذا الداء نظرة مجردة حتى لا تكون مثل غيرك معولاً هداماً في أعز بناء للتراث وهو بناء الإسلام نفسه .

ومن العجائب : أن ترى في كل دولة إسلامية هذه الظواهر ، تراها وأجهزة الدولة تشجعها وتقوم عليها ، ثم ترى دعوة إلى إصلاح ما فسد من الأخلاق والتعليم وغير ذلك من القيم الإنسانية ، وذلك في الوقت الذي لم تتوقف فيه تلك الأجهزة الغربية عن بث سمومها ، ولا يتجه المسئولون نحو تنقية بناء الدولة من هذه الأورام الخبيثة التي تهتك قوتها ، وتمسرغ كرامتها في الوحل .

ودعوة الإصلاح حينئذ غير مجدية . . وذلك لأن الذين يقومون على تغيير المناهج إنما هم من نفس الرجال المصابين بنفس المرض ، والذين رباهم مرضى قد أزم من مرضهم ، ولهذا نعجب كل العجب من أن المنهج الوليد الجديد الذي سمي منهج إصلاح ، إنما هو نفس المنهج القديم المريض العفن ، قدمه إلينا كبار الوجهين وقد ضحكوا على « ذقوننا » بتغيير بعض الألفاظ وبعض العناوين . أما الطريقة فهي هي ، وأما المواضيع فهي هي ، وأما التزام منهج اللغة العربية بخطة التنمية الاقتصادية ، وبخطة الإسكان ، وبخطة الأمن الغذائي ، وبخطة تحركات الكبار فهي هي ، حتى أصبح الضحك بكاء ، وأصبح العجب جنوناً .

ولندع هذا المرض الخطير والمعقد والمزمن والمستعصي بعد أن أشرنا إلى بعض مظاهره إلى الهدف الرئيسي الذي تهدف إليه تلك الهجمة الشرسة من هجمات التغريب والتشوية التي تسود عصرنا ، ألا وهو « الإسلام » نفسه . . الإسلام من حيث هو دين لجميع ، أصبح دين تفريق : : كان ديناً يجمع الأعداء تحت لواء أخوة الإسلام ، فأصبح ديناً يفرق الأحياء تحت أقيية العداة والتناحر والبغضاء . وهو الموضوع الذي تعرض له فضيلة الشيخ الشعراوي في كتابه هذا . . وهو أهم موضوعات هذا الكتاب ، وأهم موضوعات العصر الذي نعيش فيه .

وظواهر الفداء بين المسلمين لا تنحى على أحد . حروب هنا وهناك ، وأجهزة إعلام تسب وتلعن هنا وهناك . . وانقطاع لما أمر الله به أن يوصل من العلاقات هنا وهناك . . واختلاف في الرأي ونظام الحكم والولاء في كل مكان ؛ بل في كل بيت وأسرة في ديار الإسلام . . ومن أجل المال قتل الأخ أخاه ، وقطع رحمه ، وسب عرضه ، وتحالت الأسر والعشائر ، حتى أصبح من العسير أن يجتمعوا إلا على صراع وعداء .

وقد ألصق أعداء الإسلام تبعة هذا الداء الوييل بالإسلام حديثاً ، كما ألصقه الشيعة بالإسلام قديماً .

وتحت يدي رسالة مخطوطة من المكتبة الظاهرية بدمشق للإمام الفقيه المحدث عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي المتوفى عام ١١٤٣ من الهجرة كتبها عام ١١٣٢ من الهجرة اسمها « رد الحجج الداحضة على عصبة الغي الرافضة » وهي جواب عن سؤال يقول : إنه ورد عليه من بعض الجهات الشامية ، منسوب إلى طائفة من أهل البدع الاعتقادية . وصورة السؤال الذي ورد عليه في منتصف شهر جمادى الأولى عام اثنين وثلاثين ومائة وألف هو قولهم :

« إن دين الإسلام مذهب واحد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي زمن الصحابة ، وكذلك الخلفاء الراشدين كان الإسلام مذهباً واحداً ،

لا خلاف فيه ولا تبديل فجعلتم يا أهل السنة أربعة مذاهب : شافعى ،
وحنفى ، ومالكى ، وحنبلى . وزعمتم أن اختلافهم رحمة ، وهو تكذيب
بعضهم بعضاً ، وهذا التفريق ما جاء فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، فيكون
بدعة ، فأجيبوا ، وإلا كنتم أهل بدعة .

ويعجب الإمام النابلسى من جهل هؤلاء الشيعة الرافضة ، ويقول :
إن دين الله وحى على رسوله الذى لا ينطق عن الهوى . ومع ذلك كان ينسخ
بعضه بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها
أو مثلها ﴾ (١) . فكيف مع ذلك كان دين الإسلام مذهباً واحداً فى زمن
النبي صلى الله عليه وسلم ؟

وأيضاً فإن الصحابة كانوا مجتهدين ، وكل منهم اجتهد فى معانى القرآن
الكريم ، ومعانى السنة النبوية وقال بفهمه ، وعمل به فى طاعة ربه ، وكان
النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك ، ويرضى عنه ، حتى قال : « أصحابي
كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وقال : « من اجتهد فأصاب فله أجران
ومن أخطأ فله أجر واحد » . وقال الله فى كتابه : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول
وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ (٢) .

وهذا دليل على جواز اجتهاد المجتهدين فى دين الإسلام إذ كانوا
علماء بعلوم العربية الاثنى عشر علماً ، وعلوم الحديث ، والخطأ مغفور
منهم شرعاً بقوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ (٣) .
وهذا كله كان فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، والأحاديث فى ذلك
كثيرة .

ويؤكد النابلسى ما يؤكدّه الشيخ الشعراوى من أن أمور الأحكام
العملية هى محل الاجتهاد ، أما الأحكام الاعتقادية فليس بين المسلمين
فيها خلاف أصلاً ، وكلهم فيها مجمعون على مذهب واحد .

وقولهم : إن المذهب كان واحداً فى خلافة الصحابة صحيح فى العقائد ،

(١) سورة البقرة ، آية : ١٠٦ . (٢) سورة النساء ، آية ٨٣ .

(٣) سورة الحج ، آية : ٧٨ .

أما المخالفون هم فيها فهم أهل البدع كالروافض والخوارج وفرقهم الكثيرة . وقد ذكر النجم الغزى افتراق الشيعة إلى خمس فرق : كيسانية ، وزيدية ، وإمامية ، وغلاة ، وإسماعيلية ، وكلهم يسمون « الروافض » . وافترقت هذه الفرق إلى فرق كثيرة ، لكل منها اعتقاد خاص يخالف لاعتقاد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعمال تخالف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

والآن قد وضح أن أهل الشيعة هم أصل هذا الاتهام ، وأن المبشرين المحدثين قد أخذوه عنهم ، وأن الشيعة هم أصل البلاء في العالم الإسلامي كله منذ وجدوا ، ودليلنا على ذلك قول الإمام علي زين العابدين بن الحسين ، وهو من كبار أئمة أهل البيت لمن حضر من الشيعة : « لقد أحببتمونا حتى صار حبكم علينا عاراً » .

ومن العجائب أن يرمى الشيعة أهل السنة بأنهم مبتدعون . ويعلق النابلسي على هذا الاتهام بقوله : إنهم قوم لا حياة لهم ، فهم سفلة رعاع قباح الظاهر والباطن ، جهلة لا يعرفون معنى البدعة ، ولا سمعوا في غيرهم أقسام البدع ، ولا اطلعوا على حديث في ذلك يعرفون معناه ، وإنما هم همج كالبهائم ، والكلام معهم ضائع مثل كلام المستيقظ مع النائم .

ونحن نضيف إلى العلل التي ذكرها الأستاذ الشعراوي : أن الإسلام قد شرع لأهله أن يتنافسوا فيما بينهم في التواضع وتخفيض الجناح بعضهم لبعض ، فقال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ . وقال : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ . وقال لرسوله : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ . وهو المتبوع صلى الله عليه وسلم ، واتباعه سنة الإسلام . وقال تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ .

ومجموع هذه الوصايا القطعية تؤكد على المؤمنين ألا يتنافسوا في العلو

بعضهم على بعض ، وأن يكونوا على العكس من ذلك متنافسين في التواضع بعضهم لبعض ، وبذلك تكون الألفة ، وبالعكس ذلك يكون التدابر والعداء . قضية مسلمة لا عوج فيها ولا امتراء .

وقد فطن إلى هذا الملمح من أسباب القوة عالم متأخر من علماء المغرب في القرن الثاني عشر الهجري هو أبو بكر البناني الدرقاوي فذكر أن سبب ضعف المسلمين هو التنافس في العلو ، وعد هذا التنافس في العلو في الأرض زيغاً عن ظاهر الشريعة ، يتبعه زيغ عن باطن الشريعة وهو القوة والألفة .

ونحن لا نشهد في عالم الإسلام اليوم إلا تنافساً في العلو ، فكل أمة تريد الزعامة على غيرها ، وزعامتها أرشد الزعامات ، وحضارتها أرقى الحضارات ، وناسها أشرف الناس ، بل إن القطر الواحد نجد فيه هذه النزعة البغيضة ، وما صراع طلاب الأزهر بين أهل الصعيد وأهل الشرقية في أوائل هذا القرن بعيد . . إذ كان صحن الأزهر الشريف مسرحاً دمويّاً للفريقين بين الحين والحين :

التغيير إذن ليس بتغيير المناهج على الصورة التي نشهدها ، وإنما هو تغيير جذري بإنشاء جيل آخر على المنهج السوي قبل أن ينشئه الله بجبروته على أنقاض هذا الجيل كما يقول :

(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تولوا يبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) (١) .

ولعلنا نلاحظ أن الآية تشير إلى بذل سبب التنافس في العلو وهو المال في سبيل الله . . وإلا فلنتربص جميعاً ما يفاجئنا به القدر من وسائل التربية الإلهية القهرية . . ولسنا والله ممن يطيق ذلك وعلى الله قصد السبيل .

عبد القادر أحمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ،
سيدنا محمد ، وبعد :

فلقد تلقيت في بحر هذا العام سبعة عشر كتاباً كلها من بلاد إسلامية ،
وهذه الكتب تشترك في سمة واحدة ، هي ما وصل إلى هذه البلاد من
تشكيكات في الدين مرة وفيما وصل إليه هذا التشكيك من أصل الدين ،
والإيمان بإله قادر مدبر لذلك الكون ، وبعضها يتصل بأمر الوحي ، وأمر
القرآن ، وأمر رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومرة يأتي التشكيك في نظام الإسلام ، وعدم صلاحيته لقيادة حركة
الحياة في ذلك العصر .

ولقد عرفت مصدر كل ذلك . فالمصدر الإلحادي الذي يتصل بنبي
الإله القادر الخالق المدبر للكون لا شك في أنه قد وفد إلينا من الشرق الشيوعي؟
وأما ما يتعلق بالتشكيك في أمر القرآن وأمر رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم فإنه قد وفد إلينا من الغرب ، لأن رائحة الكلام الذي فيه تدل على أنهم
يشككون في الإسلام ، ولكنهم يؤمنون بدين يأتي من الله بواسطة رسل .

وقد شاء الله أن يفسر لي ذلك اللغز بما وصلنا من أخبار عن مؤتمرات ،
عقد أولها في نيسان عام ١٩٧٤ م ، وعقد الثاني في ولاية كاليفورنيا عام
١٩٧٧ م ، وأيضاً مؤتمر آخر ، ختم حصيلة المؤتمرات التي سبقته ، ويدل
على أن وراء ذلك قوة هائلة مادية ودولية ، وأن الذين دعوا إلى هذه
المؤتمرات هم صفوة المفكرين في هذه البلاد ، وعلى رأسهم أساتذة
الاستشراق في العالم ، وعلماء متخصصون في علوم الاجتماع يدرسونها

في الجامعات ، وعلوم الإنسان والسلالات ، ومعهم متخصصون في دراسة الأحوال الاجتماعية في الأمم النامية .

ولقد انتهت تلك الدراسات والأبحاث إلى توصيات أعلنت ، وتوصيات أخرى سرت ، ليعلم قريباً .

وشاع في الكتب التي تلقينا آثار ذلك كله ، من التشكيكات التي لم يريدوا بها التبشير بدين مسيحي كما كان يعلن سابقاً من أهداف حملات التبشير في العالم ، ولكن أريد بها شيء آخر ، هو « التنصير » .

فكانهم لم يكتفوا بالتبشير بالديانة المسيحية ، ولكنهم أرادوا تنصير المسلمين الذين يؤمنون برسالة الإسلام .

وقد عرض ذلك الكتاب الذي يحمل كل هذه الأفكار على المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية بالأزهر ليدرسه ، وليضع ما يمكن أن يكون سداً ذريعاً لعدم تحقيق تلك الأفكار .

ولما راجعت الكتب وجدت كثيراً من الإشكالات التي كتبها الغيورون على دينهم الإسلامي ، تأخذ حظاً من هذه الأشياء ، مما يدل على أن أجهزة التبشير قد باشرت مهمتها .

ومما حز في نفسي أن تكون مصر ضالعة في هذا العمل ، يبحث طویل مستفيض قدمه قس يتبع الكنيسة المصرية اسمه « بشير عبد المسيح » . وهذا ما يمكن أن يكون عصب هذه العملية كلها .

لذلك استخرت الله ، وجعلت لقائي هذا العام في شهر رمضان منصباً على ما يمكن أن يثار بواسطة هذه العمليات الضخمة المستفيضة ، لتأخذ كل قضية من القضايا التي تثار حظها ، فنبحثها على حدة ، حتى تحدث لنا مناعة في النفوس الإسلامية ، تستطيع لا أقول : أن ترفض هذه الأفكار ، ولكنها تبصق على هذه الآراء .

وافد الإلحاد

أما الموجة التي وفدت إلينا من الشرق فأمرها معلوم ، وهو التشكيك في الدين ، سواء كان إسلامياً أو مسيحياً أو يهودياً .

وذلك أمر يراد به نفي القداسات عن أشياء يعتقدونها الناس ، ليسيروا حركة حياتهم على منهجها ، وبذلك يخلو الجو لمريدى التسلط على الأمم ، والمتسلطين على الحكم ، حتى لا يجدوا منازعاً لهم ، لا من قانون السماء ، ولا من قوانين الأرض .

وإذا كان الأمر سيسير منطقياً ، فإننا نتكلم أولاً لنرد وافدة الإلحاد عن أبنائنا المسلمين .

وكل ما تدور حوله وافدة الإلحاد من الأفكار ليس هو مناقشة النظام الذي جاء به الإسلام ، وإنما هو مناقشة النظام الذي جاء به الدين الذي يسبق الإسلام ، فلم تنشأ هذه الوافدة لمناقشة الإسلام ابتداء .

فهم يقولون : لا نجد في ذلك الدين نظاماً يحكم لنا حركة الحياة ، وهم صادقون في ذلك ، ولكنهم لو امتد بهم البحث قليلاً ، فدرسوا نظام الإسلام ، لوجدوا الشيء كل الشيء الذي يحكم حركة الحياة بما لا يمكن أن يتفوق عليه نظام بشرى على الإطلاق .

ولذلك نقول لهم : إنكم قاصرون حتى في دراسة الأديان التي تهاجمونها . فالمسيحية لم تأت لتنظم حركة الحياة ، ولكنها جاءت لتعطى شحنة إيمانية وجدانية . وهذه الشحنة هي التي كانت مفقودة عند اليهود .

فاليهود سيروا الأمر كله مادياً ، لدرجة أنهم أرادوا أن يجعلوا الله جسماً ، يجلس ويضع رجله على قصعة ، وقالوا لموسى :

(لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) (١) .

هم أرادوا أن يكون إله الغيب أمراً مادياً . وكذلك جاءوا في كل النظم وجعلوها مادية ، ولو أنك استعرضت التوراة بطولها ، فإنك لن تجد شيئاً يتعلق باليوم الآخر أبداً .

إذن فالمسيحية لم تجيء لتنظم حركة الحياة ، حتى يقال في الفلسفة الشيوعية : إنها دين لا ينظم حركة الحياة ، ونحن جئنا لتنظم حركة الحياة .

وإذا قلنا لهم : إذا كنتم تريدون تنظيم حركة الحياة فلماذا بعدتم عن دراسة الإسلام ؟ فادرسوه إذن لتصلوا إلى ما تريدون . قالوا : إن مصدر الإسلام خرافي لا وجود له .

فكأنهم نقلوا البحث من بحث نظم الإسلام إلى البحث عن المصدر الذي جاء منه الإسلام . وما دمت تقول لنا : إن الدين الذي جاء بنظام ينظم حركة الحياة جاء من إله خرافي . فلنا نقول لك : إنك جئت بنظام الشيوعية . وقلت إنه من عندك . فخذ هذا النظام الإسلامي وقارنه بنظامك ، ولو على أنه حصيلة نظام إسلامي نسب إلى إله أنتم تقولون انه خرافي .

ناقشوا إذن قضية النظام في ذاتها ، وابتعدوا عن مصدر ذلك النظام لأننا لا نريد أن تؤمنوا بذلك الإله ، ولكننا نريد أن تقارنوا نظمكم بنظامنا .

نحن نقول : إنها من الله . وأنتم تقولون : لا إله . إذن فناقشوا نظاماً بنظام . فلو فعلتم ذلك ، ثم جئتم إلى أي جزئية من جزئياتكم لتبحثوها ، فستجدون التطبيق يفسد قولكم .

التطبيق الذي طبق منذ عام ١٩١٧ م إلى الآن في كل دولة من الدول التي وقعت تحت سيطرة هذا المنهج من الفكر ، لم يؤد إلى ثمرة ، بل بالعكس أدى إلى خراب .

فإذا ما نظرنا إلى هذه النظم ، وجدنا أن الإسلام يأتي بالرحمة الهينة اللينة ، لينشئ جيلاً مبنياً على شيء من الهوادة ، لا شيء من العنف ، فهو حينئذ لا يريد ما تريدون .

أنتم تقولون : إنكم نظمت حركة الحياة في الأرض . ونحن نقول لكم : لا . أنتم لم تنظموا حركة الاقتصاد للناس في الأرض ، بل عمدتم إلى حصيلة جهد أناس لتفريقها على أناس لم يجدوا ولم يعملوا .

وكان من الأصلح أن تجعلوا الناس سواسية في الحركة إذا أردتم أن يكونوا سواء في الإنتاج والمحصول والغلة . ولكنكم أخذتم من قوم تعبوا لتعطوا قوماً لم يتعبوا . ثم لم ترضوا بهذا أيضاً ، لأنكم حكمت بقضية فلسفية . . هذه القضية هي : الدعوى ونقيض الدعوى ، والجامع بين الدعوى ونقيضها .

الدعوى كانت شراسة الرأسمالية . . فالتقيض جاء ليأخذ السلطة ويعطيها للعمال ، ضد الرأسمالية . ولكن العمال بشر أيضاً ، قد يأخذون هذه السلطة ، وبعد ذلك يطغون فيها كما طغى أصحاب الرأسمالية . فقلتم : لا بد من أن توجد هيئة تجمع بين الدعوى وبين نقيض الدعوى في يد واحدة . وهذه هي اليد الحاكمة فقط .

فأصبحت اليد الحاكمة هي التي تملك الثروة ، وتتحكم في العالم ، ولا سلطة لأحد بجانبها في أي حركة . وسموا هذه الهيئة « السيطرة الموجهة » . ونحن نرد على ذلك لنعطى الجيل الإسلامي الناشئ خيرة يمكن أن يرد بها على كل هذه الوافدات .

إن الثورة التي بدأت عام ١٩١٧ م ، وأشاعت مبادئها ، ادعت فيما أشاعته : أنها لم تأت بالشيوعية التي يحبون أن يؤصلوها في المجتمع ، وإنما جاءت بمقدمة للشيوعية ، وهذه المقدمة هي « الاشتراكية » . . إذن هم لم يدخلوا في مجال الشيوعية ، ومعنى هذا أن النظام الشيوعي أيضاً مسن الاشتراكية فيما يريدون .

ونقول لهم : إذا كنتم قد قمتم بهذه المقدمة لتقدموا للشيوعية ، فانظروا أتقدمتم إلى الشيوعية ، أم تأخرتم حتى عن الاشتراكية ؟

إنكم فوجئتم بواقع الحياة يصور أخطاءكم ورعوناتكم . . وجدتم أن

الشعور بالنفعية الشخصية في النفس قد انطفأت جذوته ، ولم يعد هناك وازع في النفس للعمل ، ما دام الأمر ستركز في أن كل فائض يؤخذ ، فلا داعي لأن يجهد الإنسان نفسه إلا بمقدار حاجته ، إن الطموحات البشرية لا تبيء في كل الأفراد ، وإنما الطموحات البشرية تأتي في أفراد معدودين ، في كل مجتمع ، وفي كل عصر :

فإذا كانت المنفعة الذاتية هي التي تسيطر على حركة الإنسان إقداماً وأدباً وإخلاصاً وغيره ، لأن كل هذا سيعود على العامل ، فإن هذا الحافز قد فقد في نظامكم مما أدى إلى أن البلاد التي كنتم تصدرون منها حبوبكم جاءت حتى أصبحتم أنتم تستوردون الحبوب من الخارج :

فهذا يدل على أنكم لابد أن تراجعوا في النظام ، حتى يكون أقرب إلى الطبيعة ، إلى نظام يستغل فيه حب الذات في النفس البشرية ، حتى يكون له حافز يجعله يعمل ، وإن لم يكن المجتمع في باله ، لأنه إن عمل والمجتمع ليس في باله ، فسيدخل المجتمع في الفائدة قهراً عنه :

فهب أن إنساناً يريد أن يبني عمارة ، وعنده مال مكنوز ، فيدخل الله عليه خاطر استثمار المال ، فيقول : ومالي لا أستغل مالي في بناء عمارة ضخمة تدر على كذا وكذا . . . نقول له : إن المجتمع سيفيد من ذلك أردت أم لم ترد : العامل ، ومصانع الطوب ، والأسمت ، والبناء والكهربائي والمهندس ، ومهندس الديكور ، وتاجر الأدوات الصحية ، وغير ذلك كثيرون سيفيدون من هذا العمل .

فإذا نظرت وجدت أن المجتمع قد استفاد منها قبل أن يستفيد منها صاحبها ، من أفقر الطبقات إلى أغناها :

إذن فالحركة الذاتية في النفع الذاتي لابد أن توجد نفعاً للمجتمع ولو لم يكن المجتمع في بال صاحب المال ، لأن المجتمع سيفيد رغماً عنه ، رضى أم أبى .

إذن فأنتم اضطررتم إلى أن تدخلوا نظام الحافز . . إذن فأنتم لم تتوسعوا في نظام الاشتراكية إلى الشيوعية ، وإنما رجعت حتى من بعض أبواب الاشتراكية . . ومعنى أنكم رجعت : أن هناك فكراً شرساً قد هباً لكم أمراً لتسيطروا به على ناحية الحكم في البلاد ، وتستذلوا الناس ، لأنكم جعلتم لقمة العيش التي تقيم حياتهم في أيديكم ، ومعكم سلطة الحكم .

إذن فأنتم رجعت إلى الحافز لتوجدوا شيئاً من الحركة النافعة المؤملة حتى الموت . فإذا كنتم رجعت عن الاشتراكية التي ادعيت أنكم جئتم بها مقدمة للشيوعية ، إذن فهذا تراجع . هذا مقابل الدعوى .

وإذا نظرتم إلى الدعوى الأصلية ، وهي أنكم جئتم بذلك لتخلصوا الدنيا من شرور الرأسمالية ، فلننظر في الجهة المقابلة إلى شراسة رأس المال . : أبقيت على شراستها ؟ أم أعطى العمال الحقوق ، والراحات ، والمكافآت ؟

إذن فلا الرأسمالية سارت في شراستها ، ولا الشيوعية سارت في شراستها ، تلك مخطئة ، وهذه مخطئة ، والواقع كذب الاثنین معاً .

إذن فلا بد أن تتنازل الشيوعية عن شراستها ، وأن تتنازل الرأسمالية عن شراستها ، ومعنى تنازل الطرفين المتقابلين أنهما تواجهها ولم يتدابرا ، وإذا ما تواجهها التقيا بالضرورة في منتصف الطريق ، ومنتصف الطريق هو الذي جاء به الإسلام .

فلو أنكم نظرتم ، لو جدتم الإسلام قد صحح شراسة الشيوعية ، وصحح شراسة رأس المال ، فلو أنصفتم لجعلتم هذا النظام الإسلامي منقذاً لكم مما تورطتم فيه ، سواء كان ما تورطتم فيه هو فكرة الشيوعية ، أو فكرة الرأسمالية .

فإذا أردنا أن نقهرهم على أن يقارنوا نظمهم بنظام الإسلام الذي أبقى على الحافز ، وأشاع الخير الفاضل ، ثم الحركة الإنسانية ، وجدنا أنهم قد أخرجوا : : ووجدنا أنهم يذهبون إلى شيء آخر لا يدخل في مقام

المناظرة ، ولا تقوم به حجة ، لأنهم فروا من مناقشة النظام ، ومقارنته بالنظام الآخر ، إلى الكلام في مصدر هذا النظام .

قالوا : الكلام الذى جئتم به أيها المسلمون جئتم به من أصل خرافى . . إذن فالنظام موجود أولا ، أما كونه ممن ، فهذا أمر لا يعنيتكم ، فقارنوا نظاماً بنظام . وقد قارنتم ففشلت . . وتبين تفوق النظام الإسلامى على نظمكم جميعاً ، وأنه سابق ، ومتميز ، وأنه لا إذلال فيه لأحد على أحد ، لأن أحداً لم يدع أنه أتى به ليستدل به الناس ، أو يحاول بذلك أن يجد له مكاناً بين الناس ، لأنهم يقولون : إنه ليس من عندنا ، إنه من عند الله .
لقد بدعوا يناقشون فكرة الله .

نقول لهم : هذا فرار من ميدان المناظرة ، وميدان الجدل ، ما لكم والله الذى قلنا : إننا جئنا بالنظام من عنده ؟

ناقشوا نظاماً بنظام . . ناقشوه على أنه نظام بشرى فى مواجهة نظام بشرى آخر . ومع ذلك فسنحاول أن ندخل معكم فى النقاش ، حتى لا تظنوا أننا فررنا من نقاش هذه المسألة .

إنكم تقولون : إن الإله الذى تنسبون إليه هذا النظام إله لا وجود له ، وأن العالم يسير هكذا بطبيعته ، إلى غير ذلك من الكلام .

نقول : لو أنكم نظرتم إلى نظامكم ، أيمكن أن يدعى أحد أن النظام جاء هكذا بدون مقنن له ؟ إنكم قلتم : ماركس . . لينين . . إذن فالنظام الذى عندكم لم تستطيعوا أن تنسبوه إلى قوة خفية ، وإنما نسبتموه إلى قوة مادية . فالنظام عندنا جاء متميزاً عن نظامكم ، ألا تحبون أن ننسبه إلى أحد كما نسبتم نظامكم إلى ناس ، وحاولتم أن تجعلوهم آلهة .

إنه نظام جئتم به لم تقولوا إنما جاء هكذا ، ولكن قلتم إنه جاء معتمداً على فلاسفة وأساتذة ومدارس وغير ذلك : : فإذا كان هذا النظام الذى أصبح مرجوحاً بعد مقارنته بالإسلام لم ينجىء بطبيعته ، ولم تجدوه هكذا ، أنظام يتفوق عليه تقولون إنه جاء هكذا من غير أحد ؟

وهنا تقولون : لا . إنه جاء من أحد مثلنا .

نقول : إن الذى جاء بشيء عجيب لا يمكن أن يتملص منه لينسبه إلى غيره ، لأن الناس قد تصيدوا كمالات غيرهم لينسبوها إلى أنفسهم ، فإذا ما جاء أحد بهذا النظام المتفوق فهل يمكن أن ينسبه إلى شيء آخر ، ويقول : أنا لم أصنعه ؟

إن الإنسان منا يدعى ما ليس له ، هل يعقل أن مثل هذه الكمالات تترك بلا دعوى ؟ أو أن الذين يحملون هذا النظام يريدون أن يرتفعوا به عن مستواهم ، فقالوا : إنه من عند إله قادر ؟

فلو أنه كان من عندهم لقالوا كما قلتم ، ومجدوا الذى جاء به كما مجدتم : إذن فقولكم إن مصدر هذا النظام خرافى شيء لا يعينكم ، ولا يدخل فى موضوع النقاش .

وأيضاً فإننا لو نقلناكم نقلة قبل أن يكون النظام . . فالنظام الذى تحكمون به لم يكن موجوداً ثم وجد . . ووجد بموجد ، وأنتم قلتم : إن موجدته فلان إذن كل شيء وجد وطرح فى عالم الوجود لا بد أن يكون له موجد .

ما دمت قلتم إنكم أتيتم بنظام لم يكن موجوداً قبل عام ١٩١٧ وهذا النظام لم تجدوه هكذا ، ولكن أوجده موجد ، إذن فكل شيء يمكن أن يكون أثراً لا بد أن يكون هناك مؤثر أوجده .

فالفصحة التى قننا بها وقلنا إنها إسلام ، وانتصر على الفرس والروم ، أيمكن أن يكون قد وجد هكذا بلا موجد ؟

دعوا النظام الذى يحكم حركة الحياة ، وابحثوا فى الحياة نفسها . . هذه الحياة التى توجد على ظهر الأرض فى صور مختلفة ، أيعقل أن توجد هكذا بدون موجد ؟

لو أن إنساناً ما كان فى مفازة ، أى صحراء ، لا يجد فيها ماء ولا طعاماً يقيم حياته ، ثم نام ، واستيقظ ، فوجد مائدة عليها أطيب الطعام والشراب

أظنه قبل أن يتناول شيئاً منها لا بد أن يسأل فكره ، ويبحث فيما حوله ،
ليعرف من أمله بهذا ؟ وإن كان معجلاً فأكل وشرب حتى شبع وروى ،
فإنه لا بد أن يفكر : من هو الذى أحضر له هذا ؟

فلما لم يجد أحداً يقول له : أنا الذى بعثت لك بهذا ، ولكنه سمع صوتاً
من بعيد يحل له اللغز ، ويقول : أنا الذى فعلت ذلك ، ولم يوجد أحد
يعارضه فى هذه الدعوى . ألا تصح الدعوى له ، ويصبح هو صاحبها ؟

إذن فالدين لم يجيء ، من تلقاء نفسه ، وإنما جاء بواسطة أناس . . إذن
فالأثر لا بد أن يسبقه مؤثر .

فلو أنهم نظروا إلى الوجود حولهم قبل أن يوجد منهم هذا النظام ،
لوجدوا نظاماً يحكم حركة الحياة قد يكون من صنع البشر ، وقد يكون
من بقايا أديان درست ، نقول لهم : تجاوزوا عن ذلك ، وانظروا إلى
الأشياء الثابتة فى الوجود ، وإلى طرأ عليها النظام .

فالنظام جاء ليحكم حركة الحياة ، إذن فابحثوا عن الحياة قبل أن تبحثوا
عن حركة الحياة .

وما دمنا قد استدللنا على أن كل أثر لابد أن يسبقه وجود مؤثر ،
وقد سبق وجود نظام لكم تحكمون به حركة الحياة الاختيارية وجود مؤثرين
أصحاب مدرسة وضعوا ذلك النظام .

انظروا ما فوق ذلك ، وابتحثوا فى المنظم (بفتح الظاء) له ، المنظم
له هو حركة الحياة بالنسبة للإنسان ، والإنسان ليس وحده فى هذا الوجود
الذى نظمتم له حركته ، لأن الإنسان إنما هو جنس من أجناس كثيرة ،
وأنتم نظمتم للإنسان ، ولكنكم لم تنظموا شيئاً لبقية الأجناس غير الإنسان :
والنظام الموجود لغير الإنسان له موجد ، وأنتم لم تدعوه ، وهذا النظام
فى أخريات أموره إلى الإنسان .

فالإنسان جنس ، وهو جنس أعلى ، ومعنى أنه أعلى : أنه لا يوجد في الوجود المرئي للإنسان جنس يفوقه في خصائصه .

أقول : في المرئي ، لأنه قد يوجد في الغيبي جنس أعلى من الإنسان . إنما نتكلم عن الإنسان المرئي المشهود في عالم الملك ، ولا نتكلم عن الأجناس التي توجد في عالم الغيب ، وعالم الملكوت . لأن ذلك أمر لم نعرفه إلا عن طريق الدين ، وطريق الدين مختلف فيه ، ولهذا لا يصح أن يحتج به عندكم .

إذن فالإنسان جنس أعلى ، والأجناس الأخرى دونه في التكوين المسخر ، ودونه في المهمة .

فالإنسان إذا نظر حوله فوجد نفسه متحركاً حساساً ، وجد بجانبه جنساً آخر متحركاً حساساً هو الحيوان الذي هو دونه . . ولكن الإنسان يفخر على الحيوان بأنه مفكر . . ومعنى مفكر : أنه يختار بين بديلات متعددة .

الحيوان لا يختار بين بديلات ، لأنه محكوم لا بنظام بشري ، ولكنه محكوم بنظام قهري وجد في جبلته ، لم يتعلمه أبداً ، والغايات القهرية القسرية دائماً لا بدائل لها ، لأنها أمر واحد .

فأنت مثلاً إذا آذيت قطة بأي نوع من الإيذاء فلها رد واحد . . أما إذا آذيت إنساناً فضربته ، فقد يضربك مثل ضربتك ، أو ضربة فوق ضربتك ، أو يوقعك في شر ، أو يسخر منك ، أو يعفو عنك ، إذن فهناك بدائل متعددة ، والذي يرجح واحداً منها هو الفكر المميز للإنسان عن الحيوان .

والإنسان منا يأكل ، فإذا جاء عزيز عليه ، وعرض عليه الطعام فإنه يأكل معه أيضاً ، ويأتي ثالث فيأكل معه ، ولكن الحيوان بعد أن يشبع لا يمكن أن يأكل أبداً ، لأنه محكوم بحكم الغريزة التي لا تتجامل ، ولا بدائل عندها .

فإذا كان الإنسان يختار بين بدائل متعددة ، فما الذى يجعله يختار بديلاً على بديل ؟ إنما يختار بديلاً على بديل وفق ما يرى من الخير فى البديل الذى يختاره .

وقد يختلف الناس فى تقرير ذلك الخير على حسب أهوائهم ومشاعرهم ومواجيدهم .

إذن فلا بد من وجود قوة عليا لتنظم سلطان الهوى ، حتى لا يفسد على الإنسان أمر اختياره ، فتدخل هذه القوة لتفرض نظاماً لاختيار الشيء الذى إن لم تختره يحصل الاضطراب .

وبعد ذلك تأتى لتجد الحيوان متمتعاً بفضله على جنس آخر تحته ، وهذا الجنس هو النبات ، والنبات يمتاز عن الجماد ، إذن فالوجود جنس فوق جنس ، وتجد كل جنس فى خدمة الأجناس التى فوقه .

فالجماد من الماء والهواء وعناصر الأرض والشمس والقمر كلها فى خدمة النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان ، ولكن الإنسان يخدم من ؟ إنه سيد مخدوم من هذه الأجناس كلها ، ثم لا يجد له فى عالم المراتب والمحسوسات من يخدمه .

وهذه الأجناس تخدم الإنسان بلا قدرة له عليها منذ كان صغيراً ، أليس من العقل أن نفكر إذن فيمن سخر هذه القوى للإنسان ؟

أى قوة تلك التى تأمر الشمس فتأتمر ؟ وتأمر القمر فيجيب ؟ والماء فينصب ؟

إذن فواجب العقل أن يقف لبحث عن القوة التى سخرت هذه الظواهر ، لتكون فى خدمته .

فإذا جاء إنسان وصاح : أيها الناس ، إني قد جئت لكم بحل هذا اللغز . جئت لأخبركم : من الذى سخر هذا ؟ فأبسط الواجبات أن نسمع لهذا الداعى الذى يخبرنا بأن تلك القوة « الله » .

يقول الرسول ذلك ، ويأتى بالمعجزة الدالة على أنه صادق ، وبعد ذلك ، هل قال الرسول : أنا فعلت ؟ لا . هو أيضاً خرج من هذه المسألة . إنه يقول : أنا لم أفعل .

ولو أنه استغل المعجزة التي لا يستطيع أحد أن يقوم بها ، وقال : أنا جئت بشيء لا يستطيع أحد أن يأتي به ، وأنا الذي فعلت ذلك ، فقد يجد من يصدقه . ومع ذلك لم يقل ذلك أبداً . . بل قال : أنا تلقيت هذا عن القوة التي فعلت .

ولذلك فقد جلى الحق هذه الحقيقة تجلية علمية يتطلبها العقل ويؤيدها فقال :

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) (١) .

يقول : أنا أعيش بينكم ، فهل جربتم على هذه الأمور المعجزة ؟ إننى لا أدعى ذلك ، ولكنى أنقله عن الله .

ومن العجيب : أن المستشرقين يقولون : لماذا لا يكون القرآن ثمرة نكت عبقرى لمحمد الذى نشأ بين أمة فصيحة بليغة ؟

ونحن نقول هذا أيضاً . . ولكن صاحب الظاهرة نفسه لا يدعيها . فما شأنكم أنتم تنسبونها إليه . والآية صريحة فى نفي هذه الشبهة .

على أن العبقرية لا تكون فى الأربعين ، وإنما تكون فى آخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث .

وإذا كان المستشرقون يقولون : إنه كذب ، وجازت كذبه على أجلاف العرب .

(١) سورة يونس آية : ١٦ .

نقول لهم : ما المراد بالكذب ؟ كل كذاب يكذب ، فلئنا نحاول أن نحقق بكذبه لنفسه نفعاً لم يكن موجوداً قبل أن يكذب . فما النفع الذى حققه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى يدعو به إلى الكذب ؟

إنه عاش كما نعلم فقيراً مسكيناً متواضعاً ، يلبس المرقعة ، ولم يشبع من خبز الشعير ، وكانت النار لا توقد فى بيوته الشهر والشهرين ، فلماذا كذب إذن ؟

ليس للكذب مبرر فى حياته ، لأنه لو عاش على ما كان عليه من ائتمان الناس له فى التجارة قبل البعثة ، لعاش فى يسر ورخاء وعز بين قومه . بل إن المتاعب كلها انصبت عليه بعد هذه الدعوة . . إنه لم يرد لنفسه الحياة ، بل أرادها له واهب الحياة .

وكذلك لم يجعل لأهله حظاً فى دنيا الإسلام . . فقد منع أهله من أخذ الزكاة ، ومنع أهله من أن يرثوه . . وعلى هذا فليس هناك مبرر للكذب أبداً .

والملايسات التى مرت به جعلت الناس قسمين :

قسماً آمن به ، وقسماً تصدى له . والمتصدى لإبطال دعوى مقابلة يجند لها كل مواهبه لينتصر . وماداموا كفروا وجندوا كل قواهم ، ثم انتهى أمرهم إلى أن أئمة الكفر تصرع ، والباقي يذهب إليه مؤمناً ، وبعد أن كان حرباً عليه يصبح ناصراً له ، كل هذا يدل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يدع هذه الزعامة ، وإنما أسندت إليه من السماء ، وكانت لها تبعات جسام ، ولم يستفد منها واحد من أهله .

وأيضاً حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أدلكم على الإله الذى خلق ورزق وسخر لكم ما فى الأرض مما لا يدخل تحت قدرتك . ثم أعلنها فى (لا إله إلا الله) . وأعلنها مدوية فى آذان سادة الجزيرة . أى الذين ما كانت تستطيع أى قبيلة أن تقف فى وجوههم ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم يقولها فى آذان هؤلاء المسيطرين : إن الأصنام التى تعبدونها لا تضر ولا تنفع .

وبعد ذلك ظلت الكلمة منكراً ممن كذبها ، ولم يدع إله ممن يعبدون أنه الإله . . وظلت كلمة التوحيد بدون رد من إله آخر .

إذن فقضية الإيمان انتهت بالصدق وبالواقع . فقولنا لا إله إلا الله بقي بلا معارض من آلهة أو ناس أو من أى جنس منظور أو غير منظور .

وإن لم يكتفوا بهذا نقول لهم : إن الدين الذى جاء قد حل لكم كثيراً من معضلات الحياة . التى واجهتكم بمجهوداتكم أنتم .

علماء السلالات حينما سردوا السلالات وجدوا أنها تكون دائماً في المستقبل إلى كثرة ، فهم وقفوا عند الظاهرة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا مع الظاهرة تمشياً يهديهم إلى أصل الدين ، لأنهم ليس عندهم فكر في أن يذهبوا إلى دين . ولو كان عندهم فكر في أن يذهبوا إلى دين لأصبح من الميسور على الباحثين أن يذهبوا إليه .

نقول لهم : إن العالم سكانه الآن مثلاً أربعة آلاف مليون . وقبل قرن من الزمان مثلاً كان ١٠٠٠ مليون . وقبله ٥٠٠ مليون . وهكذا ستنتهى إلى أنك كلما أوغلت في القدم قل العدد .

إذن فالتكاثر ينشأ في الاستقبال ، والقلة في القدم . . . ونتدرج في القلة حتى نصل إلى ١٠٠ نسمة ، ثم إلى ١٠ نسمات ، ثم إلى نسمتين اثنتين ، لأن الواحد لا يكون منه تكاثر .

إذن قد حل لغز التكاثر والسلالات ، ولكن : من الذى حله ؟ الذى حله الدين . لأن الاثنين اللذين كان منهما التكاثر قد تحدث عنهما الدين في قوله تعالى :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ (١) .

وهكذا حل لغز الأنساب والسلالات والتكاثر في الوجود ، هذه قضية لا يجادل فيها إنسان . . ومن هذه القضية نرد على من قال : إننا من أصل واحد هو القرد ، أو غيره ، لأن كل جنس موجود باستقلاله ، فالدين الذي سوف تقوم عليه الساعة يقول :

(ومن كل شيء خلقنا زوجين) (١) .

فهذا الإله الذي تقولون عنه : إنه خرافي : هل حل لنا هذه الألغاز ، ومحمد بلغها لنا ، وكونكم تنكرون رسالة محمد ، فمن أين جاء لنا بهذه الحلول إذن ، تلك الحلول التي عجز عنها العلم إلى الآن في القرن العشرين .

ولنما دخلنا معهم في البحث هكذا ، لنثبت لهم أن كلامهم إنما هو فرار من جدية البحث ، لأنهم نقلونا إلى شيء ، لا يدخل في باب المناظرة .

الوحى والرسول

وقد أشاعوا فيما أشاعوا فى كتبهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رجل كان يصيبه الصرع ، وكل ما حدث مما قال : إنه قرآن ، أو إنه حديث قدسى ، أو إنه حديث نبوى ، كل ذلك كان نتيجة الصرع :

والرد على هذا أن نقول باختصار : هل المصروع يفىق إلى ما يكون منه فى أثناء صرعه ؟

إن المصروع يفعل ، وحين يفىق ينكر ما فعل ولا يذكره : . ولكن الذى حدث لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه كان حين يأتية الوحى فى منتهى الهدوء ، وفى منتهى السكون ، وفى منتهى الاستقرار ، ولا يحدث له إلا ما يحدث من اضطراب لا رجوع له .

لم يجربوا عليه فى أثناء الوحى كلمة خرجت منه ، ولا تفرقا فى جوارحه ، وإنما كانوا يلاحظون أشياء كانت تحدث منه وهو فى منتهى الثبات ، وفى منتهى الاتزان ، ومنتهى الاستقرار ، فإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة حكى كل ما أوحى إليه من الله تعالى .

والذى يدل على بطلان مزاعمهم : أن الوحى كان ينزل عليه بالنجم (١) الطويل من القرآن فيستغرق وقتاً طويلاً ليحكيه ويقرأه ، فإذا ما قرأه وكتبه كتبه الوحى ، عاد فقرأه فى الصلاة وحين يقرؤه فى الصلاة كان يقرؤه كما كتبوه عنه ، فهل هناك فى الوجود واحد يستطيع أن يقول كلاماً ، قد يستغرق الساعة فأكثر ، ثم يقال له : أعدده كما قلته ، فيعيدده كما قاله ؟

لاشك أنه حين قال فكتبوا عنه ، وحين أعاد فكان كما كتبوا ، يقيم الدليل على أنه يصدر عن قضية ذكرها القرآن ، هى قوله تعالى : **{ سنقرئك فلا تنسى } (٢)** . لأن هذا أمر خارج عن نطاق البشر .

(١) يعنى : المقدار الكبير من الآيات .

(٢) سورة الأعلى آية : ٦ .

هاتوا أى إنسان ليتكلم ربع ساعة ، ثم سجلوا عليه ما تكلم به ، ثم قولوا له : أعد علينا ما تكلمت به ، فإنه لا بد أن يخطئ . . ولكننا نأتى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنجده يسجل ما يقول فى أثناء الوحي ، ويقرؤه فى الصلاة ، فلا نجد فارقاً بين هذا وذاك .

* * *

قالوا : إن محمداً يأتى بكلام ، فمرة يقول : إنه قرآن ، ومرة يقول : إنه حديث قدسى ، ومرة يقول : إنه حديث نبوى . . وصنعوا من ذلك مصدر تشكيك وقالوا : إنه حين كان يروق له أن يقول : ذاك قرآن ، يقول : ذاك قرآن ، وحين كان يروق له أن يقول : ذاك حديث قدسى ، يقول : ذاك حديث قدسى ، وحين كان يروق له أن يقول : ذاك حديث نبوى ، يقول : ذاك حديث نبوى .

نقول لهم : إن الذى أخذتموه لتجعلوه ضد نبي الإسلام هو فى صالح نبي الإسلام . وعادة يترك الله بعض الحق عند الأحمق ، ليدل على حمقه .
نقول لهم : هاتوا لنا فى عالم الإنس إنساناً له موهبة أن يقول ، وما دامت له موهبة أن يقول ، فسجلوا له مميزات أسلوبه ، ثم اسألوه أن يغير الأسلوب إلى أسلوب آخر ، ثم سجلوا له الأسلوب الآخر ، ثم قولوا له : نريد أسلوباً ثالثاً ، فإنه لا يستطيع أن يتبرأ من أسلوبه الأول أبداً .

وذلك لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص فى أداء المعانى ، وما دامت له طريقة فى أداء المعانى ، فإن الأداء سيأخذ تشخيصاً لا يمكن أن يبرى صاحبه نفسه منه .

فإذا ما جئنا بأسلوب قرآنى ، وأسلوب حديث قدسى ، وأسلوب حديث نبوى ، فسنجد أساليب ثلاثة لا يمتزج فيها أسلوب بأسلوب ، بل لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه .

فهل يستطيع بشر أن يجعل لموهبته الأساسية ثلاثة أساليب ، بحيث يقول : أنا الآن سأتكلم بأسلوب قرآن ، ثم يقول : أنا سأتكلم بأسلوب حديث

قدسى ، ثم يقول : أنا الآن سأتكلم بأسلوب حديث نبوى : إن هذا لا يمكن أن يكون فى طاقة البشر .

إذن فهو كما هو . . القرآن يوحىه الله له ، والحديث القدسى يوحىه الله له . ولكن الفارق : أن القرآن يأتى من الله وحياً معجزاً متحدى به ، ومتعبداً بتلاوته ، والحديث القدسى يأتى وحياً من الله ، ولكنه ليس معجزاً ، ولا متحدى به ، ولا متعبداً بتلاوته .

وأيضاً الحديث القدسى لا تصح بقراءته الصلاة ، ولا يمكن أن يكون إلا بطريقة من الطرق التى لم يجئ بها القرآن . . فثلا القرآن إنما جاء بطريقة واحدة هى الطريقة الثالثة حيث قال تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ (١) .

الوحى هو : إعلام بخفاء كما يقول العلماء . وهو الإلهام ، وليس المراد به جبريل . والمعنى : لا يمكن لبشر أن يتلقى عن الله ، وأن القدرة الممكنة لا يمكن أن تتلقى عن القدرة الواجبة المطلقة ، والطاقات حين تنتقل من قوى إلى ضعيف ، لابد أن توجد بينهما وسائط . . . هذه الوسائط تأخذ من القوى لتعطى الضعيف . فالقوة الواجبة لا يمكن لأحد أن يتحملها .

فالرسول صلى الله عليه وسلم حين كان يتلقى عن الله ، إما إلهاماً ، وإما أن يتكلم الله من وراء حجاب ، وإما أن يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء .

وهذا كل ما يمكن أن يكون من الاتصال بين الله وبين رسله ، مرة يجيء بالإلهام ، ومرة يجيء بكلام من وراء حجاب كما حدث ليلة الإسراء ، أو كما حدث لموسى حين كلمه ربه . ولكن القرآن لا يمكن أن يجيء إلا

من طريق واحد ، هذا الطريق الواحد هو : أن يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء :

إذن فالقرآن لم يثبت إلا من هذا الطريق . . . أما الحديث النبوي والحديث القدسي فيثبتان بالطريقتين الآخرين .

ولماذا خص الله القرآن بهذا الطريق ؟

لأن القرآن معجزة متحدى بها ، فلا بد أن يوجد وحي من الله ، ليكون إما إيذاناً بأن تتغير طبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الشيء ، حتى يمكن أن يتقبل من الوحي ، وإما أن يتمثل له الوحي أحياناً كرجل ، وحينئذ تكون المسألة خفيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه بقي على طبيعته ، والوحي هو الذي انتقل عن طبيعته إلى طبيعة رجل .

وذلك كما حدث وجاء ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لإسلام والإيمان والإحسان ، فأجابه ، وعجب الحاضرون ، كيف يسأله ويصدق ؟ مما يدل على أنه كان يعرف الجواب مقدماً ، وإلا لما حكم على كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق ، ولذلك زال العجب حينما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم » .

إذن فالوحي يتشكل ، وقد يحدث تغير في طبيعة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتمكن من الأخذ عن الوحي ، ولذلك يقول : إنه يسمع حول رأسه مثل دوى النحل . وشهد الناس أن الوحي كان إذا جاءه وهو على الناقة بركت من شدة الوحي وثقله ، وأنه كان إذا أوحى إليه ويده على رجل صاحب له ثقلت عليه حتى تكاد أن ترضها ، وكان يشتد عليه العرق في اليوم البارد ، وكل هذا يدل على أن هناك تفاعلاً حصل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إيذاناً بأن جبريل قد جاء ليقول له شيئاً :

ولكن الحديث القدسي والحديث النبوي يثبتان بالطريقتين الآخرين :

الأول والثاني مما ذكر الله في الآية الكريمة .

ولذلك يجب أن نفهم أن الاختلاف بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث القدسي وأسلوب الحديث النبوي لا يجوز أن يكون مصدر تشكيك ، وإنما يجب أن يكون دليل إيمان بصدقه صلى الله عليه وسلم ، وبأن الرسول يعطينا ثلاثة أساليب للأداء بحيث لا يشترك أسلوب مع أسلوب ، ولا تشبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى ، بل لبعضها خواص التحدى ، أما الحديث القدسي والنبوي فليس لهما خواص التحدى ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فيما نقله جبريل : عن رب العزة . أو يقول : قال الله عز وجل ، لنتفرق بين حديث نبوي وحديث قدسي ، ولذلك رأى بعض العلماء أنه لا يكاد يوجد بينهما فارق إلا أن الحديث القدسي توقيني ، والحديث النبوي بعضه توقيني وبعضه توفيقى :

إن الله اصطفى بعض خلقه وأعدهم على عينه ، حتى يكونوا أهلاً لتلقى الوحي من السماء ، ليرحمهم جميعاً ، بأن جعل مشقة التلقى عن الأعلى مقصورة على هؤلاء المختارين ، فلو أن الله خاطب كل إنسان لكان قد تعرض لهذه التغيرات ، ولكنه قصر هذه المتاعب على هؤلاء المصطفين الأخيار .

ويدل على هذه المتاعب قوله تعالى :

(ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك*الذى أنقض ظهرك)(١)

حينما فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت هذه السورة ، لأن الوحي كان يجيء بمشقاته ، وكان يجيء بتبعاته ، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد أن يسرى عنه : « دثرونى . . دثرونى » وكان يرجف كأن فيه شيئاً من الحمى :

إذن فهذه متاعب تحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأخذ عن أمته الوحي ، ولو أن الله أراد أن يخاطب الناس كما يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان في ذلك العنت كل العنت على الجميع : ولكن الله

اصطفى واحداً لحمل هذه المسألة . ومع هذا الإعداد فقد أصابه من المتاعب ما يقول الله فيه : « ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك » :

إذن فالشئ الذى كان يأتى أولاً بالمشقة قد اعتاده الرسول ، حتى كانت المتاعب فى المرة الثانية أقل من الأولى . ولذلك قال الله تعالى فى سورة أخرى :

(وللآخرة خير لك من الأولى) (١) .

وذلك لأن العلاقة بين الوحي وبين الرسول كانت صعبة ، ولكنه بعد أن كان يفصم عنه الوحي ، كان يجد حلاوة ما ألقاه الله إليه ، فيعجبه ماأخذ ، ولذلك أوجد الله فيه طاقة اشتياقية . والطاقات الاشتياقية تهضم كثيراً من المتاعب ، فتجعله يتمنى أن يحدث له ذلك مرة أخرى . .

هذا التمنى يرسمه لنا بعض الفلاسفة بصورة فيقول : هب أنك رأيت شجرة من التفاح فى أعلى الجبل ، والجبل وعر ، والصعود إليه صعب ، ولكنك تحملت المشقة فوقعت مرة ، وتشبثت بالصخر مرة ، حتى وصات إلى الشجرة ، وأخذت منها ثمرة ، فأكلتها .

فحين تأكل يحدث لك شوق أن يحدث لك مثل ذلك . هذا الشوق يوجد لك طاقة ثانية فوق طاقتك الأولى ، أو ينسبك المتاعب . . فإذا ما أغراك فإنك تشاق إلى تعب تعقبه لذة . أما فى الأولى فأنت تعبت بعد أن أدركت لذة ، فهذه اللذة التى أدركتها بعد تعبك الأول هى التى سهلت لك التعب الثانى .

فالرسول حين نزل عليه الوحي أول مرة فالثمرة لم تأت بعد . فلما جاءته الثمرة جعل الله له فترة توجد له طاقة من الشوق ، وطاقة من الحنين ، إلى حلاوة ما يصله من الله . وهذه الحلاوة يسرت له كثيراً من المتاعب ولذلك لم يعد يقول بعد الوحي : « دثرونى . . دثرونى » . ولا « زملونى زملونى » . ولا ترجف بوادره ، ولا يقول : « فغطني حتى بلغ منى الجهد »

(١) سورة الفصحى آية : ٤ .

فقول الله تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (١) .

معناه : إنك قد أخذت المتاعب الأولى ، وهذه المتاعب ستيسر لك
الوحي في المرات التالية .

إذن فالحق سبحانه وتعالى إنما يعطى لرسوله صلى الله عليه وسلم من
فيضه عطاءات متعددة .

عطاء هو قرآن يقول عنه له : تحد به القوم . وعطاء آخر هو أحاديث
قدسية ، ليست للتحدي ، وعطاء ثالث هو أحاديث نبوية ، يفرضه فيها .
ولذلك ليس الحديث النبوي كله كلام . بل إن رأى غيره تكلم فسكت ولم
يرد عليه فهذا حديث نبوي . وإن فعل واحد فعلا فسكت فهذا حديث
نبوي . والحديث النبوي أحياناً يكون توقيفياً ، وأحياناً يكون توفيقياً ،
والحديث القدسي توقيفي من الله ، بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم
حينما يعرضه يقول : عن رب العزة ، أو : قال رب العزة ، دلالة على أنه
من الله . . . ومن الحديث نفسه يدل على أنه من الله . والله هو المتكلم .
أما الحديث النبوي فمنه ما ألهمه الله أن يقوله ، ومنه ما قاله بتوفيق الله تعالى .

الرسول والتشريع

ومما وصلني : أنهم يقولون لنا عن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم :
أنتم تقولون إن محمداً لا ينطق عن الهوى . وأنتم تعلمون أن الله غير كثير
من أحكامه ، فإن كان وحياً في الأول وفي الثاني فقد تعارضا ، وإلا فقد
أخطأ لأنه تبع الهوى .

ويقولون لنا : أنتم تقولون : إن القرآن يقول : ﴿ إن هو إلا وحي
يوحى ﴾ (١) ثم يأتي القرآن ويعدل ، وما دام قد عدل ، فليس بوحي .
نقول لهم : إن عندكم غباء . أو عندكم سوء نية ، وتلاعياً بالألفاظ
للوصول إلى هدفكم .

انظروا إلى معنى ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٢) . الله فوضه واثمنه على
أن يقول . بدليل أنه قال له في القرآن :

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٣) .

إذن فقد جعل للرسول تفويضاً أن يقول ما يشاء . . وكان بعض العلماء
إذا سئل عن حكم لا يوجد فيه نص من القرآن ، وإنما هو من فعله صلى الله
عليه وسلم ، فالسائل يقول للعالم : هات لي نصاً من القرآن على أن الأوقات
التي فرضها خمسة ، أو أن الظهر أربع ركعات ، فكان العلماء يقولون :
﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٣) .

الله شرع الصلاة إجمالاً ، وترك للرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلها
عدد ركعات ، وعدد أوقات ، وحركات ، وكلاماً ، كل ذلك فوض

(١) سورة النجم آية : ٤ .

(٢) سورة النجم آية : ٣ .

(٣) سورة الحشر آية : ٧ .

فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتضى قوله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

ونقول لهؤلاء : هاتوا لي نصاً من دستوركم يقول : إن الموظف الذى يتخلف خمسة عشر يوماً يفصل . لا نص فى الدستور يقول هذا ، ولا حق للمفصول أن يقول : إنكم خالفتم الدستور ، لأن الدستور ينص على القواعد العامة ، ويترك التفصيل الجزئى للسلطة .

فالرسول يحىء له أمر إجمالى من الله ، ثم يقول لنا : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ . وهذا ما نسميه باللائحة التنفيذية ، أو المذكرة التفسيرية ، أو القوانين المكملة .

وهناك نزعة جديدة بين المسلمين تقول : لا نعرف بالمذاهب الأربعة ، لا الشافعى ولا أبى حنيفة ، ولا مالك ، ولا أحمد ، كل هؤلاء لا نعرف بهم . ثم بعد ذلك تطاولوا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نقول لهم : أنتم تصلون الظهر أربعاً ، والعصر كذلك ، والمغرب ثلاثاً ، وهكذا ، فهاتوا أنتم دليلاً على ما فعلتم من القرآن . حينئذ لا يستطيعون أن يأتوا بالدليل .

نقول لهم : هذا هو الدليل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ هذا هو الدليل على أن ما جاء فى القرآن إجمالى لا يحىء به الرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلاً .

والله تعالى يقول : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ (١) .
فكرر الأمر بالطاعة للرسول وهناك : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ (٢) .
ومرة أخرى : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ (٣) فقط .

(١) سورة المائدة آية : ٩٢ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣٢ .

(٣) سورة النور آية : ٥٦ .

فتشريعات الله التي أمرنا الحق أن نطيعه فيها : تشريع اشترك فيه الله والرسول ، الحق شرع ، والرسول شرع أيضاً ، فهذا نطيع فيه الله ونطيع فيه الرسول .

وتشريع آخر شرعه الله وبينه الرسول ، فهذا نطيع فيه الله والرسول : وتشريع آخر لم يشرعه الله ، وإنما شرعه الرسول وانفرد به وهذا نطيع فيه الرسول .

إذن فمعنى ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ . أن الوحي إما أن يجيء بالأمر جملة وتفصيلاً ، وهذا ليس للرسول فيه عمل . . . وإما أن يجيء الأمر جملة ، ويعطى الله قضيته تفويضية للرسول ، في أن يشرع ، كما قال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

فإن حكم الرسول حكماً ، ثم جاء الحق وعدل له فيه ، وصوبه له ، فهذا دليل على أن ذلك فيما فوض الله فيه الرسول ، فحكم فيه بما تقتضيه الفطرة الإيمانية البشرية ولكنه لم يكن هناك حكم من الله فعدل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه :

هذا هو معنى ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ : لم يكن هناك حكم من الله ، ولكنه بمقتضى التفويض من الله قال بمقتضى الفطرة الإيمانية البشرية . وبعد ذلك يدلنا الله على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق في الكلام عنه ، فترك رسول الله يتكلم بالفطرة البشرية الإيمانية ، ولكن الله أعلى حكمة من الرسول ، فيعدل له ليعرفه أنه لم يفوضه ويتركه لبشريته ليقول ما يشاء ، فإذا جاء بشيء تحكم به البشرية على مقتضى حكمها ، يعدل الله له ، فإذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ربي عدل لي الحكم ، دل ذلك على أن الرسول صادق في الكلام عن الله ، وأنه لا عزة له من الله ، ولا كبرياء له أن يصوب له ربه :

فكل ذلك يثبت أنه مأمور ، ولكنه حتى في حالة عدم موافقته للحق لا يقال : إنه أخطأ ، لأن الخطأ : أن توجد عندك قاعدة صوابية فتخالفها ،

فيحاول المصحح أن يعدل لك : بمعنى أن يقول لك : إن قولك لا يتفق مع القاعدة الصوابية التي أعطيتها لك .

القاعدة مثلاً أن الفاعل مرفوع . فإذا نطقه الناطق منصوباً صوبناه له ، وقلنا : إنه أخطأ فصوبناه ، لأن عنده قاعدة صوابية .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم في المواضع التي عدلت له لم يكن عنده فيها حكم من الله . بل هو يقول بمقتضى التفويض ، وبمقتضى الفطرة الإيمانية ولكنه إن وافق الحق أقره ، وإن لم يوافق الحكمة العليا عدل له الحكمة البشرية بالحكمة الربانية .

وقد بحثنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فوجدنا أنه مأمون ، لم يستح أن يقول بعد ذلك : صوبى ربى . مما يدل على أنه مأمون على كل ما يقول .

إذن فقول الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ معناه أنه لم تكن عنده قضية فخالفها ليخدم هواه .

ولنأخذ قضية زيد بن حارثة . . زيد بن حارثة كان عبداً لخديجة رضى الله عنها ، ووهبته خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء أبوه وقد عرف أنه في مكة ، وأراد أبوه أن يأخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيرته رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أن يذهب إلى أبيه ، وبين أن يبقى معه ، فاختار أن يبقى معه .

لقد قال زيد وهو حب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنت لأختار على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً . ولم يرض أن يذهب مع أبيه . فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنان البشرى أن يكافئ زيداً على اختياره له ، فدعاه : زيد بن محمد ، بعد ما كان اسمه زيد بن حارثة .

فالله تعالى لم يوافق على مسألة التبنى هذه ، وأراد أن يبطلها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعند غيره ، فأنزل قوله تعالى :

﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ (١) .

أكان هناك حكم بالألّا يعدل عن انتساب الأبناء إلى الآباء ، ثم جاء محمد
وعدل عن هذا الحكم ليقول زيد بن محمد ؟
لم يكن هناك حكم ، وإنما صنع محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ليرد
جميل زيد حين رغب عن أبيه ، وأحب البقاء معه .
ولذلك فقد أنصف الحق - وهو الحكيم - رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال :

(ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) .

وأقسط أفعل تفضيل ، من القسط ، وهو العدل ، يعنى هو أعدل عند الله
يعنى أكثر عدلاً . يعنى أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن فعله علماً وجوراً
ولو أنه تعالى قال : ادعوهم لآبائهم فذلك هو القسط عند الله ، لكان فعل
محمد جوراً وظلماً . ولذلك قال : أقسط .

فكانه تعالى قال لرسوله : أنت فعلت القسط والعدل ، لأنك أردت
مكافأة زيد على حبه لك ، ولكن أنا عندي قضية أعدل « ادعوهم لآبائهم
هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » .

فكان محمداً صلى الله عليه وسلم بدعوته زيداً : زيد بن محمد عادل ،
ولكن الله أعدل ، والرسول لا يستنكف أن يقول : لقد عدل الله الحكم .
وعلى كل حال فهو لا ينطق عن الهوى .

ونقول لهم أخيراً : هاتوا لنا مصروعاً مثل صرعته ، ينشئ لنا هذا
النظام الهائل ، الذى يحكم حركة الحياة كلها ، من قمة لا إله إلا الله ، إلى
إمطة الأذى عن الطريق ، فهل يعقل أن يكون هذا النظام الهائل حصيلة
الصرع كما تقولون ؟

إنه محض كذب وافتراء . .

زوجات الرسول

وبعد ذلك يتطرقون إلى أشياء أخرى ، هذه الأشياء تتعلق بشخصية الرسول ، وقد وضعوا قواعد ، وحملوها على الرسول ، ثم جعلوها محل مؤاخذه ولوم .

ونحن نقول لهم : أنتم تخلطون القضايا ، لتقيسوا بها كمالات رسول الله ، وتقيسون كمالاته بقضايا تصنعونها لكمالات من عندكم . وما دمنا آمننا به رسولا ، فنحن لا نؤمن به رسولا ، ثم نضع له مقاييس الكمال من نفوسنا ، لنزن الأمور التي فعلها على مقاييسنا ، ولكن الكمال ما فعله .

أنا آمنت به رسولا ، فالكمال ، ما فعل وما لم يفعل . .

الله قد ائتمنه على أن يبلغ منهجه . . وما دام قد ائتمنه على أن يبلغ منهجه ، فأمانته على نفسه أولى به من أمانته على أنا :

إذن لا تناقش أشياء على موازين أنت تدعى أنها موازين كمال ، ثم تنسب فعل رسولنا إليها ، لنقول : إن هذه الكمالات غير ثابتة .

ومن هذه الأشياء مسألة تعدد زوجات الرسول .

ما دمت قد كذبت رسولاً ، فلماذا تؤاخذه ، فعل أم لم يفعل . . الذي يناقش في أنه فعل أو لم يفعل هو من نستكثر عليه أن يفعل لأنه رسول . . فالقضية الأصلية إذن أنه ليس رسول عندكم ، فكان يجب ألا تلوموه على تصرف ، ولذلك كان النقاش بيننا وبينك غير متكافئ ، لأنك تنظر إلى فعل معزول عن رسول ، ونحن ننظر إلى فعل منوط برسول .

نقول : هل الرسول جاء والناس يعددون ، أو جاء ليشرع التعدد في الزوجات ؟

بل الرسول جاء قوم يعددون ، فهو حين عدد لم يكن بدعاً بينهم في هذا

التعدد ، لأن هذه المسألة إن سبقه فيها رسول لم يتزوج ، فقد سبقه فيها رسل كثيرون تزوجوا أعداداً متعددة ، فلماذا نجعل الواحد هو المرجح ، ولا نجعل الكثرة هي المرجحة ؟

الواحد إنما جاء لحكمة ، والسابقون قبله عددوا لحكمة . فالرسول لم يشرع التعدد ، وإنما جاء والتعدد نظام قائم له ولكل الناس .

لكن الأمر يختلف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى من تبعه من المؤمنين ، إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء لمن تزوج أكثر من أربعة ، فأمره أن يمسك أربعاً ، ويفارق الباقي . هذا كلام واضح بالنسبة إلى من تبعه من المؤمنين .

ولكن لننظر : هل كانت الإباحة لأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم إباحة لمعدود ، أو كانت إباحة لعدد ؟

الإباحة لأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم كانت لعدد . . . أيا كان هذا العدد ، أربعة ، فإن ماتت واحدة تزوج غيرها مكانها ، إن طلق واحدة يأتي بواحدة مكانها ، إن طلقهن جميعاً فله أن يتزوج أربعاً غيرهن .

إذن فتابع الرسول صلى الله عليه وسلم له العدد ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فليس له العدد ، وإنما له المعدود .

والفرق بين العدد والمعدود : أن المعدود إنما أبيح للرسول بذواته ، فإن ماتت واحدة لا يأتي بواحدة مكانها ، وإن ماتت الأربعة عند الرسول فليس له أن يتزوج ولا واحدة . إذن فقد أبيح له المعدود ، فهن بخصوصهن . قال الله تعالى :

(لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) (٢) .

(١) يريد بالواحد السيد المسيح عليه السلام ، لأنه لم يتزوج . . . وقد كان عدم زواجه راجعاً إلى أنه لم يكن له محل إقامة ، بل كان دائم الترحال ، لا يستقر في مكان إلا ليرحل عنه كما تتطلبه دعوته عليه السلام . (عطا)
(٢) سورة الأحزاب آية : ٥٢ .

ذلك حكم ليس لتابع من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم . إذن فالعدد عند تابع محمد قد يدور إلى أربعين . . ولكن العدد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير دائر ، لأنه محصور في هؤلاء ، فإن من لا يحل له أن يتزوج غيرهن .

الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج ، واجتمع عنده من الزوجات تسع ، وحين شرع الله ذلك العدد ، فالرسول صلى الله عليه وسلم إما أن يحتفظ بأربع ويسرح الخمس ، وحين يسرح الخمس فإنهن أمهات مؤمنين ، وأمهات المؤمنين محرمات على سائر المؤمنين .

إذن فلو سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس نساء ، لبقين أى الخمس بدون زواج ، لأنهن محرمات على الجميع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين يشرع لأمة أن يمسكوا أربع ويسرحوا الباقي فهذا الباقي لكل منهن أن تتزوج من رجل آخر .

ولكن ذلك بالنسبة إلى الرسول ممنوع ، لأن زوجاته محرمات ، إذن فليس هن إلا أن يبقين زوجات لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وأيضاً فالمعنى الذى يريدون أن يغمزوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم مرفوض فى تاريخه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى سن الخامسة والعشرين تزوج امرأة تكبره بخمسة عشر عاماً ، وهذا على خلاف القاعدة ، فى أن الرجل يتزوج دائماً بمن دونه فى العمر ، وظل مع خديجة إلى أن ماتت ، ولم يتزوج عليها .

كان ولا بد أن يتزوج بمن تقوم بمسائله ، فتزوج سودة بنت زمعة ، امرأة تقوم بواجب الزوجية ، وتزوج عائشة ، وهى فى السادسة من عمرها ، ويدخل بها وهى فى التاسعة ، فالسياق الجنسى أو العاطفى ممنوع هنا .

بعد ذلك نأتى لنجد فى نسائه من تتبرع بليتها لضرتها ، فهل تتبرع بليتها إلا بعد عدل الرسول ؟ ثم نأتى هى وتتبرع بليتها ، ومعنى هذا أنها فى ذاتها لا تصلح أن تكون امرأة يقضى منها الرجل لإربته ، فكأنها لم ترد إلا أن تكون أمّاً للمؤمنين . ومن نسائه فى الجنة بصفته وساماً من الأوسمة .

كذلك تأتى إلى أم سلمة ، وعندها عيال ، وتقول لرسول الله : إنما لم يعد لها أرب ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعلها أمّاً للمؤمنين . ويريد أن يلقي الناس درساً في أن الإنسان إذا أصيب في عزيز لديه أن يستقبل المصيبة بما علمنا رسول الله ، فنقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم آجرني في مصيبتى ، واخلفنى خيراً منها .

حين مات أبو سلمة — وكانت أم سلمة تحبه — قيل لها : قولى ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : أهنأك خير من أبى سلمة ؟ فقد استبعدت أن يكون هناك من هو خير لها من أبى سلمة . فرسول الله علمها أن هذا الدعاء لابد أن يأتىها بخير من أبى سلمة . وتزوجها رسول الله . ، وأصبحت أمّاً للمؤمنين .

فكل زوجة من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم لها قضية إيمانية يريد الرسول أن يثبتها في المؤمنين . . حفصة مثلاً يعرضها عمر على أبى بكر وعثمان ، ويرفضان الزواج بها ، ويحز ذلك في نفس عمر ، فيتزوجها رسول الله .

كل هذا يدل على أن لكل زوجة قصة . . . ويجب أن يلحظ أنه لم يوسع عليه في ذلك ، بل إنه ضيق عليه .

ذلك ما يمكن أن ترد به على من يقول ذلك في رسول الله ، ويجب أن نفتح المجال لبحث هذه الأشياء ، لأنهم حين تكلموا عن رسول الله هكذا ، فقد دفعوا المسلمين إلى بيان حقيقة هذه المسألة ، فربما كان في نفوس المسلمين منها شيء .

لهم يريدون أن يشوهوا نبي الإسلام ، ولكنهم في الواقع خلدوا نبي الإسلام .

استغلال قضايا المرأة

وأيضاً يدخلون علينا فيقولون : إن الإسلام دين جاف جامد ، يريد أن يجمد نصف المجتمع ، وهى المرأة .

يقولون : إن المرأة ليس لها حركة فى الحياة .

نقول لهم : أخطأتم ، لأنكم لم تفهموا الإسلام .

ويأتى بعد ذلك قوم ليدافعوا عن الإسلام ، فيحاولوا أن يوجدوا فى تصرفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبرر التصرفات التى توجد من المرأة الآن فى العصور الحديثة .

فكلما خرجت المرأة لعمل أو لشيء يقول هؤلاء : نعم ، لقد خرجت المرأة للجهاد ، وكذا وكذا وكذا ، ولم يدعوا كل حدث فى مجاله وإطاره وضرورته .

يقولون : لقد خرجت المرأة للجهاد والحرب والحج ، فكيف تتجمد فى العصر الحديث ؟

نقول : يا أخى ، كانت تمرض ، وكانت تداوى الجرحى ، وهذا نوع من الاختناق فى العمل له نظير عندنا ، لأن الاختناقات ، حينما تكون محوطة بشيء من العقيدة التى تحول بين المرأة وبين مضار الاختلاط فلا مانع . وهل يظن بالمحاربين وهم فى المعركة سوء من ناحية المرأة ؟

فى الحج اختلطت المرأة بالرجل فى الطواف وغيره . وقد تطوف بجانبك امرأة وأنت لا تدري . قل لى بالله ، الرجل الذى جلس طيلة حياته يعد لأن يحج ليكفر عن خطاياہ ، أهو فى هذه الحالة يفكر فى امرأة أو فى غيرها من الشهوات ؟

إن نفسه فى هذا الموقف لا يمكن أن تفكر فيما يفكر فيه الرجل حين يجتمع مع امرأة فى مكان ما .

وكذلك الاحتجاج بالحرب . هذه الحرب فيها قتال ، فيها قتلى ، وفيها

جرحي ، وفيها فزع ورعب ، ومع ذلك ظلت المرأة تؤدي واجبها فيها .
وهي تحاول جاهدة ألا تأخذ من الموقف أكثر من الضرورة فيه .

ألم تذهب صفية بنت عبد المطلب وتقتل الكافر الذي امتنع حسان بن
ثابت عن قتله ، فلما قتله قالت له : انزل فأسلبه ، أي خذ سلبه ، أي
ما معه من الغنيمة ، فوالله ما منعتني عن أن أسلبه إلا أنه رجل .

فلقد قتله وحين قتله فقد الحس والحركة ، أما كان للقاتلة أن تنزل إليه
وتأخذ ما معه ، وأنهت المسألة ؟ ولكنها مع ذلك تخرجت وأرسلت رجلاً
ليأخذ سلبه ، واستعملت الضرورة بقدرها ، إنما نحن نريد أن نجعل من
الضرورة بقدرها ضرورة بغير قدرها . هذا في القتال .

وفي غير القتال يقولون : والمرأة كانت تعمل كذا ، وتعمل كذا ،
ويحددون أسماء بنت أبي بكر ، نقول : تعمل ماذا ؟ يقولون : كانت تخدم
فرس زوجها ، وتعلفه وتسقيه وكذا وكذا .

نقول : رأيتم كانت تعمل ماذا ؟ وتعمل لمن ومع من ؟ إنها تعمل
لزوجها ، في رعاية آله .

فالمرأة تعمل مع زوجها ، وتعمل مع أبيها ومع أخيها لأنه من محارمها ،
ألا تعمل ذلك مع بنات جنسها ؟
إذن فالمرأة تعمل في حدود مجالاتها فقط .

وأعداء الإسلام أرادوا أن يستعدوا نساء الإسلام ضد الإسلام ،
وأن يجعلوا من المرأة سن حربة ليطعنوا بها كل مقومات الإسلام التي جاءت
لتحفظ العرض على الناس جميعاً .

وقضية المرأة يجب أن تدرس في إطار من الواقع التكويني الخلقى ،
قبل أن تدرس من الناحية الأخلاقية . فيجب أن نقارن بين وظيفة المرأة في
الإسلام وبين لياقة تلك الوظيفة بالتكوين الخلقى لها .

وعلى هذا إذا أردنا أن نبحث المسألة بحثاً له أرضية من الواقع نقول :
المرأة نوع من جنس ، أي أن هناك جنساً يجمعها هي والرجل ، هو جنس

الإنسان . . والإنسان كما نعلم في التعريف المنطقي « حيوان ناطق » وناطق ،
يعنى : مفكر . ومفكر يعنى له آلة يختار بها من البديلات .

وحركة الحياة لا تتطلب عملاً واحداً يعمل به النوعان من الجنس ، ولكنها
جعلت لكل نوع مجالاً من العمل . وإذا نظرنا إلى المتحرك وجدنا أنه هو
الذى يقوم بالحركة ، والحركة دائماً تحتاج إلى زمان ، وإلى مكان ، أى
أن كل حركة لابد لها من ظرف تحدث فيه ، والظرف إما زمان ، وهو
ظرف غير قار ، يعنى : ماض وحال ومستقبل ، والمكان ظرف قار ،
يعنى مكان ثابت ، والحدث يحتاج إلى الظرف القار وغير القار .

وما دام الزمان والمكان ظرفين للحدث ، والحدث لابد أن يكون من
متحرك يفعل بالحدث ، إذن لابد من ثلاثة أشياء : متحرك ، وحركة ،
والحركة تقتضى زماناً ومكاناً :

ولو نظرنا إلى الزمن عندنا لوجدناه ينقسم بالعلامة إلى ليل ونهار : .
وحين ينقسم الليل إلى جزئيات ، والنهار إلى جزئيات ، فجزئيات النهار
يجمعها قاسم مشترك هو الضوء ، وجزئيات الليل يجمعها قاسم مشترك هو
الظلمة . والضوء يريد الحركة ، والظلام يريد السكون .

إذن فالمتحرك يحتاج إلى زمان ، والزمان ينقسم إلى قسمين : قسم يتحرك
فيه الإنسان ، وقسم يستريح فيه الإنسان من العمل ، ولذلك جعله الله
سكناً .

قال تعالى : ﴿ وجعل الليل سكناً ﴾ (١) .

والسكن لا يكون إلا عن حركة ، فالليل سكن ، والنهار حركة .

فكأننا نستريح في الليل الذى جعله الله للسكن ، لممكننا أن نستقبل النهار
الذى جعله الله للحركة ، والذى يعقب الليل . فما لم نسكن لا نستطيع أن
نتحرك .

إذن فالسكون له مهمتان :

مهمة تريح من تعب حركة اليوم .

ومهمة تعين على حركة الغد .

فالذى يتحرك نهاراً ، ولا يسكن ليلاً ، لا يستطيع أن يعمل بعد ذلك عملاً ، والله تعالى هو خالق الإنسان ، وخالق الزمان ، وخالق المكان ، هو الذى جعل الليل للسكن ، وجعل النهار لنبتغى من فضله . فهل خرج الليل من كونه ظرف زمان ؟ وهل خرج النهار عن كونه ظرف زمان ؟ إذن فهما زمان انقسم إلى قسمين ، إلا أن لكل قسم منهما مهمة . فإذا حاولت أن تدخل قسماً منهما فى مهمة الآخر ، فقد أفسدت نظام التكوين السماوى .

إذن ساعة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى ﴾ (١) .

فيغشى يعنى : يغطى الكون حتى يسكن الناس فيه . وتجلى ، يعنى : ظهر ، والأشياء تصبح واضحة للناس ، حتى يستطيعوا العمل فيها :

يأتى بعد ذلك ويقول : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى ﴾ (٢)

يعنى : لكل واحد مجال فى سعيه . يعنى : يا ذكر لك مهمة ، ويا أنثى لك مهمة فإياك أيها الرجل أن تأخذ مهمة الأنثى ، وإياك أيها الأنثى أن تأخذ مهمة الرجل . . . وبينكما قدر مشترك : هذا القدر المشترك أن كلاهما إنسان مفكر ، يعنى له عقل يخير بين بديلات .

فإذا حاولت المرأة أن تأخذ خيار بديلات الرجل ، أو حاول الرجل أن يأخذ خيار بديلات المرأة ، نقول له : ستقف أمامك بنية الأشياء التكوينية . ومعنى بنية الأشياء التكوينية : الطبيعة التى خلقت عليها .

فهب أن المرأة أخذت عمل الرجل ، أيمكن للرجل أن يأخذ عمل المرأة ؟ لا يمكن ، لأن للمرأة مهمة هى أنها وعاء للإنسان ، تحمله ، ونلده ، وترضعه ، وتحضنه ، فهل يمكن للرجل أن يقوم بهذه المهمة ؟ إذن البنية تقف :

فنقول : إذا أردت أن تسوى نفسك بالمرأة أو أرادت المرأة أن

(١) سورة الليل آية : ٢، ١ .

(٢) سورة الليل آية : ٢، ٣ .

تسوى نفسها بالرجل ، ظلت مسائل تكوينية طبيعية منوطة بالمرأة . إذن أنت صعبتها على المرأة .

وأيضاً إذا أردنا أن ندرس العملية التكوينية ، نجد الرجل يتميز بالصرامة . ومعنى الصرامة : أن طاقة العقل تتحكم في تصرفاته ، وطاقة العاطفة تكاد تكون على قدرها فيه . والمرأة ستعرض لمهمة تتطلب العاطفة قبل العقل ، والرجل سيتعرض لمهمة تتطلب العقل قبل العاطفة .

وهذا نلاحظه نحن في حياتنا اليومية . . فالرجل المكدود حين يجيء ليرتاح ليلاً ، ماذا يكون موقفه من المرأة حين يسمع طفله يبكي ؟ هو حينئذ لا يرى إلا أن طفله يفسد عليه نومه ، ويعكر عليه راحته ، وربما انطلق بالفاظ يسب بها الطفل ، ويسب أم الطفل ويقول لها : أخرسى هذا الطفل ، لأننى أريد أن أستريح :

هذا هو منطق العقل ، لأنه يريد أن يستيقظ في نشاط ، ليقوم بعمله من أجل الطفل وأم الطفل .

فالرجل يريد أن يخزسه ، أما المرأة فتذهب به بعيداً لتهدده ، وهذا هو منطق العاطفة ، لأن الولد لا يستطيع ألا يبكي ، ولا نستطيع نحن أن نقنعه ألا يبكي ، لأننا لانعلم ما الذى يبكيه ويؤلمه .

إذن فالطفل يريد رقابة حنان ، وقسطاً من العاطفة ، وهذه العاطفة تصطدم مع منطق العقل في الرجل .

وقد يأتى الولد الصغير ، ثم تضطره الظروف أن يقضى حاجته وهو أمام الطعام ، فماذا يكون الموقف ؟ أبوه يغضب ويشتم ويسب ، ولكن الأم تأخذه بعيداً ، وتنظفه بيد ، وتأكل بالأخرى .

إذن فطاقة الحنان في المرأة . . وطاقة العقل في الرجل .

إذن لا يصلح الرجل لأن يتسلط على الطفل في هذا الوقت .

ولذا قلنا : يجب على الناس أن يفهموا أحاديث الرسول صلى الله عليه

وسلم التي تقول : « خلقت المرأة من ضلع أعوج ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته » . وكسره لا يكون إلا بالطلاق : أى : إن أردتها معتدلة فلا تعاشرها .

وذلك لأن مهمتها حنان وعطف ، فشبهها بالضلع ، والضلع معوج ، واعوجاجه يجعله صالحاً لمهمته ، فلو كان الضلع معتدلاً ما صلح لمهمته ، لأنه خلق هكذا ليحمي قفص الصدر بما فيه من أعضاء لينة رقيقة . إذن فعوجه لأنه مؤد لمهمته .

والناس يفهمون خلقها من ضلع أعوج على أنه سبة لها . لا . هذا مناسب لمهمتها ، التي خلقت من أجلها ، لأن مهمتها حنانية ، حملته في بطنها ، وحاطته بحنانها وهو في بطنها ، فإذا أردنا أن نزن عملها في تكوين النشء نجد أنها أشقى من الرجل ، لأنها تتعامل مع نوع لا يستطيع الإبانة عن آلامه ، وتلك مهمة صعبة ، ومهمتها أطول مهمة في نشأة الأشياء .

مهمة المرأة إن أرادت أن تكون أمينة على مهمتها التي خلقها الله لها تحتاج إلى ضعف وقتها الذي تقضيه في هذه المهمة .

فالمرأة تتعامل مع الطفل ، والإنسان في طفولته يعتبر المقياس الأعلى للطفولات في الكائن الحي .

فالأشياء تختلف في طفولتها ، شيء طفولته ساعة . وشيء طفولته يوم . وشيء طفولته أسبوع . على قدر عمر الأشياء . . ومع ذلك فطفولة الإنسان السيد تتناسب مع سيادته . فالله تعالى يقول :

(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم) (١) .

إذن فالحد الذي يخرجني عن الطفولة هو أن أبلغ الحلم . أى إذا كان عندي قدرة على أن أنجب مثلى . إذن فالإنسان من الولادة إلى أن يبلغ هو طفل .

وتلك الطفولة في حاجة إلى حضانة ، وهذه الحضانة نجدها في الأب والأم . الأب حاضن في الخارج ، والأم حاضنة في الداخل .

وإذا نظرنا إلى القيم التي تسيطر على نفس الإنسان بعد أن يكون شاباً فتياً ، وبعد أن يكون رجلاً ، فكل هذه القيم تتكون عنده من أشياء تبدأ منذ تتفتح عنده وسائل الإدراك . فبمجرد أن يدرك تبدأ قضيته أن يتعلم . يقول الله تعالى :

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) (١) .

إذن بمجرد أن يوجد سمع يوجد إدراك ، وبمجرد أن يوجد بصر يوجد إدراك ، وبمجرد ما يوجد عقل يوجد إدراك . وما دام هكذا فنحن أول وجود هذه المدركات يجب أن يتعلم .

ولكن لماذا طالت طفولة الإنسان هكذا ؟

لأن مهمته عالية ، ولهذا تتطلب طفولة واسعة لأقضية كثيرة تتناسب مع مهمته في الحياة . . . والأم هي سيدة هذه الفترة . . . ويمكن أن تأتي له بحاضنة تصنع له متطلبات حياته ، ولكننا لانستطيع أن نضع في صدر أي حاضنة قلب أم .

إن قلب الأم وظيفة أخرى . . . فإذا نظرنا إلى المحاضن التي أنشأوها في الخارج ، وجاءوا فيها بحاضنات ، لم نجدها تأتي بنتيجة إلا ما قرأناه في كتاب « الأطفال بلا أسر » لأن الطفل في فترة من الفترات يريد راعياً له وحده ، وحاملاً له وحده ، ومن يعتنى به وحده ، بدليل أننا إذا رأينا طفلاً ولد عقيقه طفل آخر ، فما يحدث من الطفل الأول ليس غريباً علينا : فبالك بحاضنة تشرف على عشرة أو عشرين . . . هي طاقة موزعة على غير أبناء ، من قلب غير قلب الأم :

إذن فالمرأة إذا أدت مهمتها على ما طلب منها فإن وقتها يضيق بها .
ومن الممكن أن تكون المرأة كل شيء في الوجود إذا أخلصت لمهمتها..
فالمرأة حين تأخذ جهد الرجل وعرقه ، وتحاول أن تدبره تدبيراً يتسع
لمطلوبات الحياة تستطيع أن تنميه ، وتستطيع أن تتعلم وتعلم أبناءها ما يكف
النفس عن مصروفات في غير طائلها ، وتستطيع أن تجعل البيت مستقلاً ذاتياً
في كل شيء .

فإذا كانت المرأة تريد أن تعمل فلتعمل في مملكة بيتها ، وزيرة صحة ،
ووزيرة تعليم ، ووزيرة مالية ، وقاضية بين أولادها .

والإسلام حين طلب من المرأة أن تتفرغ لهذه المهمة فيجب ألا تعزل
قضايا الإسلام بعضها عن البعض .

يقولون : حاجة العصر هي التي اضطرت المرأة للخروج إلى العمل .
نقول : إنك غيرت قضية من قضايا الإسلام . المرأة مطلوبة من
زوجها ، ومن أبيها ، ومن إخوتها ، فحين تأخذ قضية المرأة ، لاتعزل
قضيته في الإسلام عن باقي القضايا الإسلامية .

إذن لو وجدت امرأة ليس لها أحد من هؤلاء ، أولها من هؤلاء أحد ،
ولكنه عاجز ، فالإسلام لا يجمد أبداً . لم يمنع المرأة في هذه الحالة من أن
تضرب في الأرض الضرب المناسب لمهمتها ، وأن تحتفظ أيضاً بكونها
امرأة .

وقصة بنات شعيب في القرآن لم تترك عنصراً من عناصر احتياج المرأة
إلا وجاءت به . مما يدل على أن القرآن لا يعرض القصص للتسلية وقتل
الوقت ، بل لالتقاط العبرة .

قضية الإسلام : أن الرجل مسئول عن بناته ، والرجل مسئول عن
امراته ، وعن أمه ، فالإسلام إذا أخذناه كلا ، فإننا لانجد فجوة واحدة ،

فإذا وجدت امرأة محتاجة ، وليس لها من يقوم بها ، فقد ضرب الله لنا المثل في قصة موسى فقال :

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) (١) .

تذودان ماذا؟ تذودان الماشية . ومعنى تذودان أى : تمنعان الماشية أن تذهب إلى عين الماء .

المرأتان تمنعان الماشية أن تذهب إلى عين الماء لترد ، فما الذى أخرجهما إلى مكان الماء إذن ؟ هذا شيء يلفت النظر بحق .

إذن فقول موسى عليه السلام : (ما خطبكما) سؤال طبعى . رأى حالة متناقضة ، رأى امرأتين مع ماشيتهما نحو عين الماء ، ثم منعاهما أن ترد الماء . وردت المرأتان : (لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) . (لانسقى) إذا كان هناك جمع وحكى عنه قول ، فهذا دليل على أن القضية مدروسة . هما قالتا . إن قالتا معاً فهذا دليل على أنها ليست قضية ارتجالية ، إنما هى قضية مدروسة ، فالجواب مدروس ، وإن قالت واحدة وسكتت الأخرى فهى موافقة سكوتية . والمعنى : قد استقر فى ديننا وعرفنا أننا لانسقى حتى يصدر الرعاء .

(حتى يصدر الرعاء) . كان هناك رجال يسقون . فلو أن الضرورة كانت تبيح للمرأة أن تختلط بالرجل فى العمل لكان لهما مبرر أن تختلطا بالرجال عند الماء . فالمرأتان أخذتا الضرورة بقدرها ، خرجتا لأن أباهما شيخ كبير ، هذه قضية بحيثيتها ، لاتسقيان حتى يصدر الرعاء . يعنى أخذتا الضرورة بقدرها ، بدون تزيد .

ليس معنى أن الضرورة أخرجهما أن تحتا بالرعاة ، فهن وإن كن خرجن ، فقد خرجن فى إطار الحجاب أيضاً .

إذن (أبونا شيخ كبير) حيثة الضرورة، و(لا نسقى حتى يصدر
الرعاء) حيثة الضرورة بقدرها بدون تزيد .

إذن فما هي مهمة المجتمع الإنساني أو الإيمانى ؟

تظهر مهمة المجتمع الإيمانى أو الإسلامى فى قوله تعالى : (فسقى لها) .
مهمة المجتمع : أنه إذا رأى امرأة أخرجتها الضرورة إلى مجال ، فعليه أن
يؤدى لها العمل ، لتعود إلى مكانها الطبيعى . هذه هي مهمة الإيمان ، وقد
جاء بها الإسلام إلينا من عهد موسى .

فالإسلام يعرض القضية لتستنبط منها الضرورة ، ومجالات الضرورة ،
حتى لاناخذ الضرورة بتزايداتها ، ونضيف إليها أشياء ليست من مجال
الضرورة .

فالإسلام لم يقف جامداً عند وجود الضرورة التى تلجىء المرأة إلى
الخروج لتعمل خارج بيتها ، وحدد الضرورة فى هذه القصة ، فى قوله
تعالى : (وأبونا شيخ كبير) وهى قضية ناضجة فى أذهان النساء فى ذلك
العصر ، وليست ارتجالية .

ثم تولى موسى إلى الظل ، فقال : (رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير) .
وهذا يدل على حاجة موسى ، ولكنه قضى العمل حسبة لوجه الله ، لأنه
رأى امرأتين خرجتا ، وهذا مناف للطبيعة .

وكون القرآن يعطينا الحكم منذ عهد موسى ، لأنه العالم بعلمه المحيط ،
ويعلم أن أصحاب موسى هم الذين سيصنعون للمرأة حدود الانطلاق عندهم ،
ليكون ذلك أسوة لحدود الانطلاق عند غيرهم . فجاء بها عن موسى ،
لأننا حين نرى ما يفد إلينا من صناعات اليهود وادعائهم تجميد المرأة على
نظام الإسلام ، نقول لهم : نبيكم هو الذى سقى لها ، ومعنى (سقى لها)
أن هذه كانت مهمته .

وبعد ذلك نلتفت إلتفاتة أخرى إلى أن المرأة من كرامتها أن تنهى هذه
المهمة . لم يجعل الله إنها القضية على يد رجل ، لا على يد موسى ،

ولا على يد شعيب والد المرأتين . وإنما جاء بها عن طريق المرأتين . فكان
المرأة الكريمة على نفسها ، الحريصة على وضعها العرضي ، ووضعها الأدنى ،
في أى مجتمع ، أن تحاول جاهدة أن تخرج من الضرورة حين تجد أول
بصيص من الأمل يخرجها من الضرورة .

ونلاحظ ذلك في اللفظة الموجودة في الآية ، في قول الحق سبحانه وتعالى :

(قالت إحدهما يا أبت استأجره) (١) .

لو أن المرأة حلا لها أن تخرج من مكانها الطبيعي إلى الخارج ، لما نهت
أباها إلى أن يستأجر الرجل ويحميها من الضرورة التي أخرجتها .

إذن فالمرأة الواعية هي التي تعشق التستر ، وتعشق الاحتجاب ، لأن
ذلك هو كرامة المرأة . ولذلك نلاحظ شوقي رحمه الله حين جاءت قضية
السفور ، على يد قاسم أمين ، وحمل لواءها ، وأراد أن يخرج المرأة إلى
الشاب ، وقف شوقي وقال قصيدته المشهورة . والجهلاء الذين سمعوها
ظنوها تأييدا للسفور ، وكانوا يستشهدون ببعض أبياتها .

صداح ياملك الكما ن ويا أمير البلبل

هذه هي القصيدة ، فمن أراد أن يراجعها فليراجعها ، ليعلم أن كثيراً
من الذين يسمون أنفسهم أدباء يستشهدون بأبيات منها يظنون أنها تأييد
لقضية السفور . فنقول لهم : أنتم لم تفهموا عن الرجل شيئاً ، لأن الرجل
تكلم كلاماً رمزياً ، وجعل المسألة كأنه يخاطب عصفوراً في قفص ،
والقفص الذي كان يعنيه قفص الحجاب للمرأة . والعصفور هو المرأة .
قال شوقي يخاطب هذا العصفور .

ياليت شعري يا أسير شج فؤادك أم خلى

وحليف سهد أم تنا م الليل حتى ينجلي

حرصى عليك هوى ومن يحرز ثميناً ينجلي

يا طير لولا أن يقولوا جرت قلت تعقل
اسمع قرب مفصل لك لم يفدك كمجمل
صبراً لما تشقى به أو ما بدا لك فافعل
أنت ابن رأى للطيب عة فيك لم يتحول
أبدا ولوع بالإسار مهدهد بالمقتل
إن طرت عن كنفى وقع ت على النسور الجهل

فهو يقول للعصفور : تعقل . ويحذره من مغادرة القفص خوفاً من
النسور الطائشة . فهو بهذا يؤيد الحجاب ولا يعارضه .

إذن فالمرأة حين قالت لأبيها : (يا أبت استأجره) لم تقل هذا إلا أنه
يخرجها من الضرورة التي اضطرت إليها على مضض .

وانظروا إلى لباقة شعيب عليه السلام ، كيف يستأجره وهو رجل ،
يدخل البيت وفيه بنتان ؟ فلماذا لا يحل المسألة حلاً إيمانياً ؟ قال له : (إني
أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت
عشرأ فمن عندك) (١) .

هكذا أطلق الله القصة ، لا لقتل الوقت ، ولكن للعبرة . وأطلقها
منذ زمن موسى عليه السلام ، لأن الله يعلم أن البلاء سيأتينا من أتباع موسى
هم الذين يزبنون لنا والمرأة أن تخرج ، وذلك حتى لانتهم شريعة موسى بذلك
وليعلموا أن الحجاب قبل أن يكون في شريعتنا ، فهو في شريعة رسولهم الذي
يؤمنون به ، وشرائع غيره من الرسل ، وبذلك تنتهى مسألة الضرورة
عند المرأة .

وأيضاً أرادوا أن يحرضوا المرأة المسلمة على الإسلام ، فقالوا : إن
الإسلام يريد أن يمنع المرأة حقها في التعلم ، وحقها في التحرر ، وفي أن
تخرج ، وفي أن تختار من تشاء .

ونقول لهم : المسألة ليست كما يظنون ، ولكن المسألة أنهم رأوا في الإسلام خيرة المناعة الإيمانية التي جعلت الشريعة لا تقتصر في هذه المسألة على الفعل الزوجي ، بل سبقت إلى الفعل الإدراكي . فهم يريدون أن يهدموا هذه القضية عندنا .

فالتشريع إنما يتدخل عند الفعل الزوجي . ومعنى هذا أن الوجدان لا تشريع له ، والإدراك لا تشريع له . فمثلاً ، واحد يحب إنساناً . نقول له : أحبه كما شئت ، ولكن لا تظلم الناس له . وإنسان يبغض إنساناً . نقول له : أبغضه كما شئت ، ولكن لا تظلم للناس .

فالمسائل الوجدانية لا يتدخل فيها الإسلام ، ولذلك يقول الله تعالى :

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (١)

يعنى : لا يمنعكم بغض قوم من أن تعدلوا . لم يمنع الشنآن ، وإنما منع أن يجرنا الشنآن إلى الظلم ، ولو وجد الشنآن بلا ظلم فلا داعى لنا به . ولذلك قال عمر بن الخطاب لقاتل زيد بن الخطاب : ازو وجهك عنى . يعنى : أنا لأحبك . فقال له : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا . قال : إنما يبكى على الحب النساء . فالتشريع لا يمنع من أن تحب أو تكره .

ولكن هناك حباً عقلياً وبغضاً عقلياً ، كما أن هناك حباً عاطفياً وبغضاً عاطفياً . والحب العاطفى لا يقنن له الإسلام ، إنما يقنن عند النزوع : تحبه ، لا تظلم أحداً له . تكرهه ، لا تظلمه .

وإنما الحب العقلى مطلوب . ولذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه توقف حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . فعمرو قال : أحب من نفسى لا . فقال رسوا الله صلى الله عليه وسلم : « حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

فلما علم عمر أن ذلك شرط في الإيمان علم بفطرته الذكية : أن المراد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الحب إنما هو الحب العقلي :

والفرق بين الحب العقلي والعاطفي : أن الحب العاطفي هو أن تحب بلا سبب . تحب ابنك وإن كان بليداً . هذا حب عاطفي . وتحب ابن عدوك لأنه ذكي ، فهذا حب عقلي . تحب الدواء المر بعقلك لا بعاطفتك . . وكذلك حبنا للرسول صلى الله عليه وسلم حب عقلي . لأنه هو الذي أنقذني ، وأعطانني الخير كله ، فأنا أحبه بعقلي .

ووجد عند أناس أنهم يحبونه بعاطفتهم . . فالمرأة التي قتل أبوها وزوجها وأخوها في الحرب ، وبعد ذلك يقال لها : قتل أبوك وأخوك وزوجك . فتقول : وما حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ تحبه بعقلها وعاطفتها . .

والمواجيد التي يجدها الإنسان في نفسه لاثواب عليها ولا عقاب ، إنما الثواب والعقاب على العمل النزوعي فقط .

شيء واحد تعدى التشريع فيه مرتبة النزوع ، وذهب به إلى مرتبة الإدراك ، وتخطى مرتبة الوجدان ، وقال : لاتدرك ، حتى لاتجد ، ثم تنزع .

وبيان ذلك أن الإنسان حين يمر أمام بستان ، فيجد وردة جميلة . رؤيتها لها إدراك ، وإعجابه بها وجدان ، ومد يده لاقتطافها نزوع . والتشريع يتدخل حين أنزع . لم يمنعني من رؤيتها ، ولا من الإعجاب بها ، إنما حين أريد أن آخذها يمنعني ، ويقول : هي ليست لك ، استأذن صاحبها أولاً .

هكذا إلا في مسألة المرأة ، فإن التشريع يبدأ من الإدراك لئلا نجد ، ثم ننزع . . وذلك لأنك لاتستطيع أن تفصل الإدراك عن الوجدان عن النزوع ، لأن في هذه العملية سرّاً ترتب على شيء مادي في تكوينك ،

وهذا الشيء المادى إما أن تكبته ، وإما تنطق به . فإن انطلقت به ولغت في أعراض الناس ، وإن لم تنطق به حطمت نفسك ، وأتعبت حياتك ، وحملت نفسك فوق طاقتها .

فكان الله برحمته بك قال لك : أنا سأتعدي في مسألة المرأة في التشريع مرتبة النزوع ، وأحرم الإدراك ، حتى لا يوجد وجدان ، ولا يوجد نزوع ، وبذلك أكون قد رحمتك .

إذن فالتشريع الإسلامى حين قال للمرأة : قرى في البيت ، لا تبرجى ، لا تعرضى مبادئك ، فهذا تكريم لها ، ومنع للعملية النزوعية الناشئة عن الوجدان الناشئ عن الإدراك . فما لم تدرك لا تجد ، وما لم تجد لا يحدث نزوع . لكن إذا أدركت وجدت ، فإذا وجدت فلا بد أن تنزع .

فالتشريع هنا قال : أنا سأرحمك وأطلب منك أن تغض طرفك ، وأطلب من المرأة أن تحتجب ولا تبرج ، ولا تبدى زينتها إلا لمحرما .

فإذا قام المجتمع بذلك فقد امتنع عن الإدراك ، وامتنع عن الوجدان نتيجة لعدم الإدراك ، وبالتالي فلا نزوع . وفى ذلك أيضاً تكريم للمرأة وتأمين .

ومعنى التأمين : أن تأخذ من القادر لتعطيه حينما يكون عاجزاً : فالحجاب وغض البصر تأمين للرجل ، وتأمين للمرأة ، لأن عمر المرأة في الجمال محدود ، والمرأة تشيخ قبل الرجل ، بسبب الحمل والولادة والرضاعة .

فهب أن رجلاً متزوجاً بواحدة ، وعاش معها فترة من الزمن ، إلى أن ذبل جمالها ، حتى أصبحت غير مرغوبة ، ولا جميلة ، ولا جذابة ، لو أن زوجها لا يرى إلا هى لظلت في عينه كما هى لا تتغير في نظره كل يوم . أى أن التغير كان يسرق من الرجل ، لأن التغير لا يأتي فجأة ، وإنما يأتي بتسلسل . كما تنظر إلى ابنك منذ يولد ، وتظل تنظر إليه دائماً ، فإنه لا يكر في نظرك أبداً . لماذا ؟

لأن الكبر ليس معناه أن جزءاً من القدر يزيد في نهاية قدر من الزمن . بل هو قدر شائع في الزمن . . فإذا كان الطفل سيكبر كل يوم مليمترأ ، فليس معنى ذلك أن يأتي آخر النهار ويزيد هذا المليمتر ، بل هذا القدر شائع في كل الزمن :

ولكن إذا غبت عنه شهرين أو ثلاثة ، فقد يتجمع النمو المطرد في كل الزمن ، فتعرف أنه كبر .

وإذا زرعت زرعاً ، وظللت ناظراً إليه منذ زرعته ، فإنك أيضاً لا ترى أنه كبر ، لأن النمو سيشيع في جزئيات الزمن ، ولا معيار يضبطه بها ، فكذلك الزوج الذى دخل على زوجته وهى فى لباس عرسها ، جميلة فتية جذابة ، ثم ينظر إليها ، فالיום لا يجدها تتغير عن أمس ، وغداً لن يجدها تتغير عن اليوم . فإذا لم ير غير امرأته ظن أن الدنيا هى امرأته ، ولا شىء غيرها .

فإذا خرج إلى الشارع ، ورأى فتاة سافرة ، فى مبة صباها ، وعنقوان شبابها ، وقمة جمالها ، متبرجة مهتكة ، ماذا يكون موقفه ؟ إنه سيبتدىء فى دور المقارنة ، وإذا ابتدأ فى دور المقارنة وجد فتاة فى مقتبل العمر ، وأخرى فى إدبار من العمر ، لا شك أن مقاييسه ستختل .

ففساد البيوت كله من هذه المسألة ، ولكن الناس يخلعون عليه أسباباً أخرى ، فنتهمها بأنها غير مدبرة ، وبأنها مهملة ، وبأنها صنعت كذا ، وعملت كذا ، وفى الواقع ليست كذلك هى . بل هو رأى الفتيات الجميلات فى الخارج ، ورأى فى بيته امرأة ذابلة مشغولة تسرع نحو الشيخوخة ، فصنع ذلك .

وكذلك أبناؤها ، لم تستقر حياتهم ليتزوجوا بعد ، ولكن تنتظرهم سياط تلهب غرائزهم فى الشوارع ، فالفساد يأتى حينئذ من ناحية الأب ، ثم من ناحية الأبناء ، وبعد ذلك لا يدرك الناس لذلك أسباباً ، بل يصنعون أسباباً أخرى غير الأسباب الحقيقية .

فالتشريع حينما تدخل ، منع هذه العمية ، وقال للمرأة : أنا حين أمنعك من السفور وأنت في ريعان جمالك ، فلكي أحملك حينما يزول عنك هذا الجمال . . أمنعك حتى لا يكون عند رجلك جمال مرئي بعينه إلا أنت وجمالك : . فإنه إن رأى سواك وكانت أجمل منك ، فإن الحياة تتعكر ، وصفوها ينهى .

كذلك نقول لهم : التشريع حين طاب من المرأة أن تقر في البيت ، وإن خرجت خرجت محتجبة غير مهتكة ولا مترجة ، فهذا هو الحق . : فإذا أحالوها على المسألة الحضارية نقول لهم : أنتم كاذبون .

والله لو اقتضت المسألة على خروجكن للتعليم لما كانت هناك مشكلة ، ولكن قلن لنا : ما العلاقة بين تعليمكن وبين صدوركن المكشوفة ؟ أو بين التعليم وبين الزينة الفاضحة ؟ أو بينه وبين ظهور الأفخاذ والأذرع ؟ أو بينه وبين اللباس اللاصق الذي يدل على المفاتن : بل أنن أخذتن الضرورة ، وأدخلتن فيها غير ضرورات ، وبذلك حققتن الفتنة .

إذن فقد كان أهم سلاح في أيدي أعداء الإسلام هو المرأة حين استخدموها عنصراً فعالاً في الدخول على المسلمين في عقائدهم ، دخلوا بها كام ، ودخلوا بها كأخت ، وكبنت ، ليستخدموها في الهجوم الجديد ضد المبادئ الإسلامية :

وقد حدثت حوادث في باكستان : وحوادث في أندونيسيا ، تقول : إن بعض الغيورين على الإسلام لبسوا مسوح الاقتناع ببعض المبادئ حتى داخلوا هؤلاء الأعداء في مجتمعاتهم التمهيدية ، ليعرفوا مدى ما يعد للإسلام من كيد :

ويؤكد ذلك قولهم : إن الإسلام حتى في تبشيراته للمتقين الصالحين الورعين في الجنة أعد للرجال حوراً عيناً ، وترك النساء بلا رجال . . هكذا أرادوا أن يدخلوا على الإسلام ، مما يدل على أن المخططين ضد الإسلام

رجال لهم خبرة بكل قضايا الإسلام ، فهم يتعمقون في دراستها لا لينشروها هدياً ، ولكن ليأخذوا سطحيات المفارقات للإضرار بالإسلام .
ولذلك أهاب بي كثير من الذين كتبوا لي أن أرد على هذه القضايا كلها .

نقول للفتاة المسلمة : إن القرآن قد حذر من ذلك فقال تعالى :
(ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) (١) .
فكلمة « ولو أعجبكم » في القرآن دليل على أنه قد يستغل الإعجاب الذي يوجد في مقومات البنية التكوينية للرجل لإغراء المرأة ، وقال تعالى في المقابل :

(ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) (٢) .
أي أن العجب المادى بالقالب مجرداً عن القيم يعطى متعة وقتية ، ولكنه ينجز في المقومات الأصلية للتكوين الإنساني .

وأيضاً دخلوا على الإسلام : من أنه جاء ضد المرأة من ناحية أنهم ادعوا أن الإسلام ظلم المرأة في الحقوق الإرثية التي تؤول إليها من ترثه ، فجعلها دائماً على النصف من الرجل وكأنها يجب أن تكون على النصف من الرجل في كل شيء . وقص الذين كتبوا لي في هذه المسألة قصة مما يلمون في جيرانهم حصل فيها الشقاق ، لدرجة أن المرأة طعنت أخاها بملدية ، بسبب هذه الشائعة التي قال بها المبشرون المنصرون .

ويجدر بنا أن نصنع المناعة أيضاً في هذه المسألة ، وإن كنا تكلمنا كثيراً لأن بعض الكتب التي وصلتنا من نيجيريا بالذات تقول : نسألك بالله ألا تترك شيئاً من ذلك المسطور في هذه الكتب دون أن ترد عليه ، وإن كنت تناولت في أحاديثك ، فنحن نريد أن نكتب في كل قضية .

(١) سورة البقرة آية : ٢٢١ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٢١ .

فنقول لهؤلاء : يجب أن تعلموا أن الإسلام لم يجيء في هذه المسألة ضد المرأة ، بل إنه كان محابياً للمرأة ، لأن أى قضية من قضايا الإسلام لا يصح أن تؤخذ في غياب القضايا الأخرى ، بل لا بد أن تؤخذ في حضور القضايا الأخرى ، ليكون الحكم على القضايا مجتمعة ، لا على قضية منفردة .

فالإسلام حين يعطى المرأة نصف ما يعطى الرجل ، فذلك لأنه جعل المرأة هي المقياس ، فلم يقل : أعطوا المرأة نصف الرجل ، بل قال : أعطوا الرجل ضعف المرأة ، فجعل المرأة هي المقياس الذى يدور عليه الأمر ، أى المكيال الذى يكال به الأمر .

لقد جعل الإسلام الضعيف هو القاعدة ، ثم جاء إلى القوى فحمل قضية الأقوى على قضية الأضعف فقال : (لذكر مثل حظ الأنثيين) (١). فكان حظ الأنثى هو المعتبر في المقياس .

فالنظرة الاقتصادية إنما جاءت من هذه الناحية ، لأن النظرة الاقتصادية تقول : إنه ليس في كل الأحيان تأخذ المرأة نصف الرجل ، بل هي حالة واحدة منصوبة هي حالة الإخوة إذا كانوا رجالاً ونساء . وفي كثير من الأحيان تأخذ البنت مثل الولد ، كالأب والأب ، وكالأخوات من الأم يأخذ الذكر مثل الأنثى تماماً .

وذلك لأن الإسلام لاحظ المحيط الاقتصادى ، الذى يقول : إننا نريد أن نعطي دخلاً من ميت لنزيد به دخل حى ، والدخل يفترض فيه أنه يقرم بوجهات نظر الحياة.. ووجهات نظر الحياة تختلف ما بين المرأة وبين الرجل .

وذلك لأن المرأة — إن أحضرت كل القضايا التى تتعلق بها في الإسلام — فهى غير مسئولة عن نفقة نفسها ، فهى إن كانت بنتاً فهى مسئولة من

أبيها ، وإن كانت متزوجة فهي مسئولة من زوجها ، وإن كانت أختاً فهي مسئولة من إخوتها ، فلا يلزمها الإسلام أن تنفق شيئاً من مالها وإن كانت غنية وزوجها فقير ، بل على الفقير المتزوج من غنية أن يقترض من غيره لينفق عليها :

إذن فالمرأة لا التزام عليها في تشريع الإسلام ، لأنها محمية في كنف الزوج أو الأبناء أو الأعمام ، أو غيرهم ، فكل أمورهم ليست هي المسئولة عنها .

فإذا جاء الشارع وأعطاهما نصف أخيهما ، فلأن النصف سيكفيها بلا زوج ، وإن تزوجت فسيكون هذا النصف خالصاً لها ، لأنها ستلحق بمن ينفق عليها ، ولا يطالبها الشرع حتى بأن تقرضه من مالها لينفق عليها . ولكن الأخ الذي أخذ ضعفها ، مطلوب منه أن يبنى حياته بزوجة يأتي بها لينفق عليها ، فما دام هو سيأتي بزوجة ينفق عليها ، وهي ستذهب إلى زوج ينفق عليها ، فكان يجب أن يقال : لماذا حابي الإسلام المرأة ؟ هذا هو الكلام المنطقي الذي يتسق مع الواقع .

نقول : نعم هو حاباها ، ولكن لماذا حاباها ؟ لأن الإسلام راعى أن المرأة قد يكون من سلاحها في الحياة أنوثتها . فهو أراد أن يحصنها من أن تستعمل أنوثتها لحياتها ، حتى إذا ما ظلت بلا عائل كفها حقها ، فإذا ما كان لها عائل ، كان هذا الحق وفراً لها .

أما الرجل فسلاحه في الحياة رجولته وكدحه في الحياة والأمر في المرأة مبني على السر .

فيجب على المسلمين في بقاع الأرض إذا وفدت إليهم وافدة من هذه الوافدات الإلحادية أن تكون لهم المناعة الكافية لأن يعرفوا كل قضية من القضايا الإسلامية بحججها التي تنهار أمامها كل الحجج البطلانية التي يأتي بها هؤلاء الأعداء .

ثم قالوا للمرأة يردوها على الإسلام : انه جعل انفصالها عن زوجها بكلمة عابرة تقال .

نقول لهم : كيف دخلتم على كلمة الفراق ، ونسيتم كلمة التلاقي ؟ إن التلاقي أيضاً يكون بكلمة . . وإذا كان التلاقي بكلمة زوجني وزوجتك ، فلماذا تستبعدون أن يكون الطلاق أيضاً بكلمة طلقتك . فهو يدخل إلى الحلال بكلمة ، ويدخل إلى الحرمة بكلمة .

وأيضاً ، فالمرأة التي تعرف أنها ستكون مع زوجها رهن كلمة منه ، لينهى هذه العلاقة ، لا بد أن تعرف أن الشريعة تحتاط جداً في أن تضع هذه الكلمة في يد أمين عليها ، وليس الأمين عليها سوى رجل يخاف ربه ، ويخشاه ويرعاه في كل أموره ، كما قال الحسن لمن استشاره في زوج ابنته : قل له اجعلها عندك ، فإن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

لو أن المرأة عرفت ذلك أيضاً ووعته ، وأدركت أن فراقها منوط بكلمة ، لاحتاطت هي أيضاً كما احتاط لها الشرع في أن تضع هذه الكلمة في يد أمين عليها فاختارت زوجها حسب مقاييس الإسلام .

وإذا تأملنا عظمة الإسلام نراه يجعل المقياس بالنسبة للرجل هو نفس المقياس بالنسبة للمرأة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول لولي الفتاة : « إن جاءكم من ترضون دينه وفروجه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » : ويقول للرجل : « فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

فلو أن المرأة أخذت في اختيارها لزوجها منطق الدين وقانونه ، والرجل أخذ في اختياره لزوجته منطق الدين وقانونه فإذا التقيا أمسكا بمعروف أو سرحا بمعروف :

ويجب أن يعلموا أن الطلاق لا يتم بكلمة واحدة كالزواج ، ولكن التشريع يعطى فرصة وفرصة أخرى بعدها ، وإذا عز اللقاء وعزت الحياة والعشرة كان أمراً لا بد منه أن يصدم الرجل وتصدم المرأة . وذلك بأن

الرجل إذا أراد أن يعود إلى امرأته لأنه اشتهاها واشتهته ، وأحب أن يراجعها ، فلا رجعة إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره ، تأديباً لرجولته ، وإثارة للغيرة فيه ، حتى لا يقف هذا الموقف مرة أخرى ، وتأديباً للمرأة حتى لا تكون سبباً في الخلاف المؤدى إلى الطلاق .

فالطلاق ليس بكلمة كما يقولون ، ولكنه بكلمات وبكلمات متفرقات بمرّة ، فلم يقل القرآن : الطلاق كلمتان . بل قال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ (١) والمرّة هي الحدث في زمن . وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ (٢) . وذلك بعد المرتين من الطلاق .

وإنما كان الطلاق مرتين على عكس الزواج ، لأن الزواج إنما دخل عليه بدون تبعات تسبقه ، وإكّن الطلاق قد يكون بعد تبعات تسبقه ، وهو وجود علائق ليس من السهل على القلب البشرى أن يتخطاها ، وأن يتعداها ، كوجود مودة ، أو أبناء ، وقد يرتبطان على أسباب نكد الحياة من أجل استبقاء البنوة .

لا نقول : إن الإسلام جاء لينقض قضية اللقاء ، وإنما جاء ليصني قضية اللقاء .

أفمن العدل أن يحمى القرآن حياة كلها نكد في ظل قانون جامد لا يبيح له أن يطلق ؟

وإذا كان القوم الذين عابوا على الإسلام هذا الموقف قد ألبأتهم ظروف الحياة وأحداثها إلى أن يعودوا إلى قضية الإسلام في الطلاق ، فذلك لا لأنهم عادوا إلى الإسلام ، ولكن لأن أحداث الحياة عضتهم ، فلم يجدوا الملجأ إلا أن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا على أنها إسلام ، ولكن على أنها قضية تحل لهم الوضع الذي يثنون منه .

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

وقد كانت عصبيتهم تجعلهم يحبسون أسباب الطلاق في نفوسهم ، فنفست هذه الأسباب في أمور كثيرة أهمها ولوغ الرجال في أعراض النساء الأخريات ، لأنه يكره المرأة التي معه ، ودينه يمنعه من فراقها ، وغريزته تلزمه أن يعاشر المرأة ، وذلك نوع من الإلزام خارج عن نطاق الطبع ، وعن نطاق الإلف ، وعن نطاق العادة .

وإذا كانت محاكم المسلمين : كما يقولون قد اختنقت بقضايا الطلاق ، فنقول لهم : ليس ذلك حجة ضد قضية الطلاق في الإسلام ، ولكنها قد تكون حجة ضد تطبيق قضايا الإسلام في مسألة اللقاء .

إن الذين دخلوا على الزواج بغير معايير الإسلام ، وقوانين القرآن ، من الضروري أن يحدث بينهم هذا الشقاق . ولكني أتحدى أن يكون رجل دخل على الزواج بقانون القرآن ، وامرأة دخلت على الزواج بقانون القرآن ، ثم يأتي بعد ذلك شيء يعكس صفو الحياة .

فإذا نكحت المرأة لجمالها ، فإن هذا الجمال سيدبل ، وإذا نكحت لمالها فقد تضمن بهذا المال ، وإذا نكحت لحسبها ونسبها ، فقد يكون هذا الحسب ، والنسب نكبة على الزوج ، ومن ثم يحدث الشقاق .

أما إذا نكحت لدينها فإن أسباب الشقاق ممتنعة ، وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة .

إذن فالدخول قد تكون فيه مخالفة ، ولولا المخالفة لما جاء أمر الخروج على البال ، لأن الذي يدخل على الزواج بمنهج الله أصلاً ، يوجب على نفسه أن يخرج إن أراد الخروج بمنهج الله كذلك .

(فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما) (١) .

والناس يفهمون قضية الحكم على أنه دخل مصلحاً فقط ، : لا

إنما دخل الحكم من جانب الزوج والحكم من جانب الزوجة ولهما أن يبرما
أمراً له قوة الحكم : : وحين يكون الأمر كذلك تنتهى النزاعات ستر
للأعراض فى بعض الأحيان ، وستر لشراسة الأخلاق فى بعضها الآخرة :

وفى الستر ما يغنى الناس عن نشر الأسباب ، لأن الله ملك الأمر فى
الطلاق للرجل مخافة أن نقول له : اعرض أسباب طلاقك فيعرض
أسباب طلاقه ، فتكون هذه الأسباب حائلا بين أن تجد المرأة من يتزوجها ،
أو بين أن يجد الرجل من تقبله زوجاً . فحين جعلها للرجل فقد استتر
وراءه كثير من الأسباب التى يحمى سترها أعراض الأسر .

هكذا يجب أن تكون الحميرة الإيمانية فى الرد على كثير من هذه القضايا :

تعدد الزوجات

وقيل للمرأة المسلمة : إن الإسلام لا يجعل للمرأة حق الزواج بالرجل ،
بينما يجعل الرجل منفردا بالزواج من المرأة ، أو المرأتين ، أو الثلاث ،
أو الأربع .

نقول : إن هذه القضية عولجت اجتماعياً ، وعولجت اقتصادياً ،
وعولجت صحياً ، فلم يجدوا حلاً لها إلا ما قضى به الإسلام .

الحل المنطقي أن نقول للمرأة التي تعترض على هذا الحكم ، هل أنت
متزوجة أم غير متزوجة ؟ الجواب أن خمساً وتسعين في المائة من المعارضات
متزوجات ، فنقول لها : لا رأى لك ، لأنك متهمة في إبداء هذا الرأي ،
لأنك لا تحبين الشريكة لك ، ولكن آخذ رأى من لم تزوج ، وتكون
على الحياد .

نقول لها : ألا تكونين زوجة ثانية بدلا من ألا تكوني زوجة ؟
وسيكون الجواب حتما : أكون زوجة ثانية بدلا من ألا أكون زوجة ،
والثالثة كذلك ، والرابعة كذلك .

ولو استقصينا آراء النساء اللاتي لم يتزوجن لما وجدنا واحدة ممن تقول
على غير حكم الإسلام .

إذن فالرجل ليس ضد المرأة ، والدين ليس ضد المرأة ، وإنما المرأة
هي التي ضد المرأة ؛

وأيضاً ففكرة التعدد منطقية وواقعية وفلسفية : فالفكرة تقول :
لا يمكن أن يتعدد شيء على شيء إلا إذا كان المتعدد فائضاً ، فإذا كان
المتعدد فائضاً فطبيعي أن يتعدد. وهب أن جماعة دخلوا حجرة فيها عشرة
كراسي ، وهم عشرة ، فكل واحد يجلس على كرسي : فإذا دخل العشرة
فوجدوا اثني عشر كرسيًا ، فإن واحداً يمكن أن يجلس على كرسي ،

ويتركى على كرمى آخر . ولا يمكن أن يعدد لنفسه كرسين إلا إذا كان هناك فائض .

إذن فالتعدد لا يأتى إلا عن فائض ، وهذه القضية خدمتها الإحصاءات الحديثة : ولو استطاع واحد منا أن يقوم بإحصاء فى منطقته ، لوجد نتيجة الإحصاء منطقية . فإذا نظرنا إلى عالم التكاثر فى الكون ، وعالم التكاثر نعرفه فى الإنسان ، ونعرفه فى الحيوان ، ونعرفه فى النبات ،

وهذا التكاثر ينشأ من لقاء بين الموجب والسالب ، أو بين الذكر والأنثى . فإذا ما نظرنا بالاستقراء إلى عدد الذكور وعدد الإناث ، وجدنا دائماً أن الإناث هن الكثيرات ، والذكورة محصورة فى عدد ليس بالكثير :

ولننظر إلى مزرعة نخيل ، ونحصى عدد الإناث والذكور ، نجد أن الذكور مرة تكون واحداً ومرة تكون اثنين . لم تكن ثلاثة إلى عشرة فى المائة . وذلك لأن الذكر يخصب أكثر من أنثى ، والأنثى لا تخصب من ذكرين .

وكذلك إذا ما جئنا بمائة بيضة ، وفرخناها ، ثم أحصينا ما بها من ديوك وما بها من إناث وجدنا أن عدد الإناث أكثر . وكذلك الإنسان إناثه أكثر من ذكوره . هذا إذا صرفنا النظر عما يطرأ على الذكورة من صدمات وأحداث وحروب .

إذن فعنصر الذكر أكثر من عنصر الأنثى فى كل عالم من عوالم التكاثر : فإذا كان الأمر كذلك ، ولا تعدد إلا عن فائض فسنقول لمن يقف ضد الإسلام ، ويعيب الإسلام : أعط كل ذكر أنثى ، ثم ستجد الفائض عدداً ، هذا العدد ما موقفه فى المجتمع ؟

موقف الأنثى حينئذ إما أن تقف فتكبت ، أى تستطيع أن تكتم السبب الأصيل ليحصل تنفيس بأسباب فرعية أخرى ، والسبب الأصيل لا يوجد ، وهذا التنفيس ستكون نتيجته إثارة الاضطراب والقلق فى بيتاتها ، فإذا كانت فتاة لم تزوج فنحن نعرف كثيراً من المآسى من

هذه المسألة ، وتأخذ في جانبها الأم ، تعكر صفو الحياة كلها لأنها لم تزوج ، وهذا السبب مستور ، والحياء يمنع من اظهاره ، ولكنه يأخذ أسباباً أخرى حتى نواجهها بالحلول وبالعلاجات ، ومع ذلك لا تشفى ، لأننا نعالج في غير الداء .

إذن فالتعدد يمنع كارثة ، ما دام لا فائض إلا بتعدد ، فلا بد أن تحل قضية ذلك المتعدد ، فشرع الإسلام أن يتزوج اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً :

أما إذا لم تعف الفائضة فمع من يكون ميدانها ؟ يكون ميدانها مع متزوج ، أو مع فتى لم يبلغ حتى مرحلة احتمال تبعات الحياة . وبذلك يفسد المجتمع كله .

فالحل الإسلامى حل طبيعى فى حل ظاهرة الفائض ، ولا أقول ان الفائض مشكلة ، لأن الفائض لم يطرأ على من شرع ، لأن المشرع الأعلى يعلم أنه سيوجد فائض فيمن خلق ، ولكنه فائض لحكمة ، وهذه الحكمة لجأ إليها كثير من الدول الآن حين لاحظوا نقصاً في عدد الرجال نتيجة للحروب فأحبوا أن يعددوا حتى ينصب الرجل الواحد عدداً من الإناث ، .

والحكمة فى هذا ليس تشريع التعدد ، ولكنها فى آثار التعدد فى الأسر ، فأخذوا من واقع الآثار ما ينفر من أصل الحكم ، وذلك تبعاته دائماً تعود إلى المسلمين ، لأن المسلم الذى عدد نقول له : إنك عددت بحكم الله ، فهل التزمت حكم الله فى كل الأمر ؟

أخذت التعدد بحكم الله ، فلماذا لا تأخذ العدالة بين المتعددات بحكم الله ؟ لماذا أخذت من يمتعك ويربكك بحكم الله ، وقلت : هذا هو التعدد . وحين عددت لم تعدل ولم تقل : الله شرع العدل .

لقد أرحت أيها المعدد نفسك ، وأرحت شهواتك ، إن لم تحترم البواقي الأخرى الإنسانية فى زواجك ، فقد أخذت لنفسك المنفعة ، وأبقيت أثر متعتك ، استدراكاً ونقداً ، لأنك ضيعت حكم العدالة بين المتعددات .

ولكن لو أنك أخذت الحكيم معاً ، واحترمت العدل بين زوجاتك ، لم تجد النساء اللائي يثرن على هذا التعدد مثاراً للسخط ، لأن المرأة منهن ستجد حظها لم يؤثر فيه حظ الأخرى ، وعيشها لم يؤثر فيه عيش الأخرى ، وحفاوتك بتبعات الزواج من الأولى وهى الأولاد لم تؤثر فى حفاوتك بتبعات الزواج من الثانية ، لأنك عدلت بين كل الذرية :

لكن حين نأخذ حكم الله فى التعدد ، ولا نأخذه فى العدل ، تنشأ تلك الآثار المنفرة ، والبغضة ، والى يستغلها خصوم الإسلام . فانظر أيها المسلم كيف أعنت خصوم الإسلام على الإسلام ، أعنتهم على أن يدخلوا على نقد الإسلام ، وتشوه قانون التطبيق نفسه ، لا لتشوه الأمر المتعلق بالمطبق (بكسر الباء) .

والعدالة تقتضى ألا تنظروا بأعداء الإسلام إلى القانون من خلال المطبقين ، لأن الناس قد يكونون طائعين ، وقد يكونون عصاة ، فإذا كانوا عاصين فلا تأخذ من عصيانهم حجة تبرر بها السخط على ما قرن الله من قوانين .

وعلى المسلم أن يعتبر نفسه فى كل قضية من قضايا دينه داعية لدين الله ، أو هادياً بالدين إلى الله ، فإن هو طبق ما أخذه عن منهج الله بحق ، كان أسوة لغيره ، فلا يجرؤ أحد أن يدخل على الدين من ناحية المتدينين ، ولا يدخل على الإسلام من ناحية المسلمين :

وأيضاً فإن الذى يختار بين أمرين فلا بد أن تكون عنده الحجة فى ترجيح أحد الأمرين على الآخر ، فالمرأة التى لم تزوج ، ثم يأتى لها رجل متزوج ليخطبها ، لو أنها رأت أن تكون زوجة واحدة ، ووجدت لذلك مجالا ، لما بقيت للرجل المتزوج متى يأتى ليخطبها ، فهى قارنت بين أن تكون زوجة ثانية ولا زوجة ، واختارت أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة . فالذى جعلها ترجح هو سبب عندها هى ، لا عند من ينتقد الإسلام .

فلا تنتقد أنت لمختار أمراً هو خير الأمور له . . . فامرأة اختارت الخيار لنفسها ، فما حدود المجتمع فى أن يتدخل ؟

الذى يتدخل ليمنع ، يجب أن تقول له المرأة : هات لى زوجاً لأكون الأولى فى حياته . والثالثة تقول : هات لى زوجاً لأكون الثانية فى حياته : والرابعة تقول : هات لى زوجاً لأكون الثالثة فى حياته . . . إذن يؤخذ المعارض بالحجة التى تلزمه ، فلا يدخل فى أمر لا يفيده :

ثم التعدد هل هو أمر مفروض فرضه الله ، أم أمر مباح ؟ الذى يعجبه ألا يعدد لا يعدد .

لم يلزمنى الله بالزواج ، فإذا قدرت على أن أحمى أعراض الناس من نفسى ولا أتزوج ، لا أتزوج ، فالتعدد على هذا ليس إلزاماً . ليس من لم يعدد آثماً ، فمن رآه قبيحاً فلا يفعله . قال الله تعالى :

(فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) (١) .

إذن فالله أباح التعدد لمن لم يخف أن يظلم ، فإن خاف أن يظلم فلا يعدد . :
إذن فيجب أن يؤخذ الحكم بكل ظروفه ، وبكل ملابساته ،

هذا من ناحية المرأة . . ومن ناحية الرجل ، فمعنى أن الرجل يعدد ، أن امرأة أولى فى حياته لم تكف طموحاته ، من أى نوع كانت : عقلية ، أو اجتماعية ، أو جنسية . وأهمها : الطموحات الجنسية ، لأننا لم نر واحداً تزوج بأخرى لأنها مثقفة أكثر من الأولى . فأغلب الطموحات هى الطموحات الجنسية .

وما دامت الأولى لا تكفيه فقد تكون له شراسة فيمن تكفيه . وهذه الشراسة فيمن تكفيه لا توجد إلا فى عرض للغير . أفتسمح له أن يريح نفسه فى أعراض الغير ، ولا نسمح له بأن يأتى بزوجة ثانية على مرأى ومسمع من الجميع ؟

امرأة محسوبة عليه ، وذريتها محسوبة عليه ، هى منه ، وهو منها ، تماماً كالأولى ، وكل إنسان محسوب عليه شئ فهو مشول أمام المجتمع

عن ذلك الشيء فاذا لم نبح له في طموحاته الجنسية أن يتزوج حليلة ، فقد أبحنا له أن يتخذ حليلة ، إذن فالحللائل خير ، أم الحللائل خير ؟ .

هذا ما يتعب بال الغربيين الآن . . لا يحصرون الحلليات ، ويوحدون الحليلة ، والحلليات غير محصورات هناك ، والنساء يعلمن ذلك جميعاً ، ولذلك فالمرأة الألمانية قالت : لأن أكون شريكة لرجل مع عشر نساء خير له من أن أكون له والحلليات فوق المائة .

يجب أن نأخذ زوايا التعدد هكذا من ناحية الرجل ، ومن ناحية المرأة المتعددة ، ومن ناحية المتعدد عليه .

أبطلقك حتى لا يعدد ، أم تظلين معه ؟ كل امرأة عاقلة تقول : بل أظل معه ، وأكون شريكة لغيري .

إذن فانظروا إلى التشريع من كل ناحية ، تجدوه تشريعاً حكيماً من جميع زواياه . فالمهم أن نأخذ الحكمة من كل زواياها ، حتى لا نأخذ شيئاً من الله ، ونرد منه أشياء ، فردنا شيئاً واحداً مما شرع بجوار أخذنا شيئاً مما شرع ، فالثانية تشوه الأولى وتكون حجة علينا عند خصومنا .

حين تكلمنا في هذه المسألة اتسعنا فيها ، وإن لم أكن سئلت عنها في كتاب نيجيريا ، ولكننا توسعنا فيها توسعاً آخر صحياً .

هذا التوسع الصحى جاء من ناحية ما قيل : لماذا جامل الإسلام الرجل ، فعدده له المرأة ، ولم يسو المرأة به فيعدد لها الرجل .

قد سئلت هذا السؤال فقلت : هل في بلادكم أماكن ليربح الشباب فيها نفسه جنسياً ؟ فكان الجواب بالإيجاب .

قلت : فبماذا احتطم لصحة المترددين ؟ قالوا : إننا نكشف صحياً على هؤلاء الفتيات في كل أسبوع مرتين ، وهناك مفاجآت لا نظام لها ولا رتبة ، حتى نتأكد من الأمن الصحى للمتردد على النساء .

فقلت : أفعلتم ذلك مع المتزوجات ؟ قالوا : لم يحدث صحياً مثل هذه الأمراض إلا في تلك البيئات .

فقلت : أبجتم عن الحكمة ؟ . . قالوا : لا ؛

فقلت : لا شك أنكم لم تبحثوا إلا أنكم لم تجدوا تبعات تضطركم إلى البحث ، ولو وجدتم تبعات في مسألة الزواج لاضطرتكم إلى فرض الحماية الصحية للزوجات كما اضطرتكم إلى ذلك في النساء البغايا .

والسبب في أن المرض الخبيث لا ينشأ إلا من تعدد ماء الرجال في المحل الواحد ، أما أن يكون في المحل ماء واحد فلا يمكن أن يكون مرض خبيث .

فعجبوا من أن الإسلام قد وصل إلى هذه النتيجة . فقلت : إننا لم نصل إليها تحت ضغط الأحداث التي تفاجئ المجتمع ، ولكننا انتهينا إليها لأن الذي آمنا به بدأ التشريع بها ، ولم يتركنا إلى أن يوجد العلاج بعد أن نشعر بالداء .

وهذه آفتكم أنتم . . آفتكم أنكم لا تذهبون إلى الدواء إلا بعد أن تشقوا بالداء . ولكن القرآن عصمنا من أن نشقى بالداء ، فشرع لنا ذلك ابتداء . وربما كنا لا نعرف العلة ، وأخذنا هنا حكماً مسلماً ، لكننا بعد أن بحثنا الأشياء بحثاً دقيقاً انتهينا إلى الحكمة فيها .

وهكذا دائماً نؤمن بأن كل قضية حكم الإسلام فيها قد يقف العقل في حكمته ، فإن القرآن سينير له الطريق ليريه الحكمة في كثير مما غابت عنه حكمته ، ليزداد إيماناً بما ظلت حكمته غائبة عنه .

ثالثة الأثافى

ثم ننتقل إلى قضية معنونة فى الكتاب الذى وصلنا بعنوان « ثالثة الأثافى » .
جمع أثفية . والأثفية الأولى جاءت فى الإلحاد ، والثانية فى المرأة وقضاياها
المتعددة ، وهذه هى الثالثة ، هى الداهية الدهياء .

وكلمة « ثالثة الأثافى » شائعة على ألسنة الناس ، يعبرون بها عن الشيء
الفظيع الذى لا يحتمل ، فكأن ما قبله محتمل ، وما بعده محتمل ، أما هو
فغير محتمل .

والأثفية هى : الحجر الذى يوضع تحت القدر ليستندها . . والقدر حين
توضع تحتاج إلى ثلاثة « أثافى » أى أحجار : حجر على اليمين ، وحجر على
اليسار ، وحجر فى الخلف ، ولا يضعون حجراً من الأمام ، لأنهم يضعون
الوقود من الأمام .

فكان الناس قديماً حين يضعون القدور يكتبون باثنتين فقط : أثفية على
اليمين ، وأثفية على اليسار ، ثم يكفى الجبل عن الأثفية الثالثة ، لأنهم كانوا
يستندون القدر من الخلف على الجبل . فالجبل هو ثالثة الأثافى ، فهو بالنسبة
إلى الحجرين داهية عظمى .

ما هى ثالثة الأثافى فى كلام أعداء الإسلام ؟

ثالثة الأثافى فى أنهم قالوا : يجب أن تستغلوا ظاهرة فى واقع المسلمين ،
هذه الظاهرة تنقض الدين من أساسه ، لأن الإسلام لم يعد مجمعاً ، بل آل إلى
أن يكون مفرقا . فاستغلوا هذه الظاهرة فى هدم الإسلام .

الإسلام أول ما جاء ليجمع . أما الإسلام الآن فى بلاد المسلمين فقد
وجد ليفرق ، وآثار الفرقة ظاهرة فى كل بلاد الإسلام . . . فالمذاهب
الرعناء ، والطوائف الحمقى ، والفرق المتباينة ، وكل طائفة اتخذت

لونا تعصبت له ، ولم تر الإسلام إلا فيه ، بل إنه ربما تسمى بها الأمر ، أو تسفل بها الأمر ، إلى درجة أن تكفر المذاهب الأخرى . وتلك قضية جعلت الإسلام الآن وسيلة تفريق ، لا وسيلة تجميع .

انظروا كيف فطنوا إلى واقع المسلمين كما قلنا ، وأنهم أعدوا لذلك الأمر بالأساطين من أساتذة التبشير ، وفطاحل رجال الكهنوت ، والمتمرسين بأمر الدعوة والتبشير ، وعلماء الجامعات في علوم الأنساب والسلالات والاجتماع ، والمتمرسين بشئون العالم النامي كله ، الدارسين له ، الواقفين على حقيقة تكوينه .

ولا شك أنهم رأوا الإسلام طوائف وفرقاً ومذاهب ، وكل مذهب يرى نفسه وأهله هم الأحق بأن ينسب إليهم الإسلام ، ويكفرون الطوائف الأخرى . فعلى هذا يصبح الإسلام مبدأ تفريق للناس ، وليس مبدأ تجميع .

فاستغلوا هذه المسألة وقالوا : أى إسلام هؤلاء صحيح ؟ فإن كان الإسلام صحيحاً في مذهب ، فالمذاهب الأخرى باطلة ، وإن كان صحيحاً في طائفة ، فالطوائف الأخرى باطلة .

إذن فيجب أن تدخلوا من باب ضيق الإسلام بالمذهبية والطائفية ، إلى أن الإسلام ليس هو الإسلام ، وأنه إن وافقه واحد فقد خالفه كثيرون غيره .

انظروا كيف درسوا قضايا الإسلام ، وكيف مهد المسلمون لهم يجعل دينهم فرقاً ، ليدخل الأعداء من هذا الباب ؟ وصدق الله العظيم إذ يقول :

(إن الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) (١) .

هذه الظاهرة كيف نشأت ؟ إنما نشأت لخطأ المسلمين في فهم كثير من قضايا الدين الأساسية . وقضايا الدين الأساسية جاءت من عند الله ، والله حق ، والله حكيم ، لا يمكن أن يغفل عن شيء فيه مصلحة للخلق ، ولا يمكن

أن يجعل لمبدأ يفرق المؤمنين سبيلا إلى أن يتسلل إلى منهجه ، لأنه سبحانه وتعالى صبور ، وحكيم .

وكثير من المذاهب الوضعية لها ظاهر يروق ، وواقع يجذب ، مهما كان أمر هذه المذاهب . فمثلا الشيوعية لها لون يعجب ، وبالتطبيق يأتي اللون الذي يتعب ولا يعجب . . . والرأسمالية لها لون معجب ، وتطبيق متعب . إذن كل ناحية من نواحي التفكير البشرى لا يمكن أن تدخل على العالم لتغزوه بقبح إجماعى ، ولكن لابد أن تدخل عليه بلون جمالى مزخرف ، وإن سترت في طيها أشياء .

إذن فكل شيء يتجه إليه الفكر لابد أن يكون له ناحية جمال تغرى ويستطيع الإنسان أن يقدمها بين يدي مطلوبه ، فمثلا في النظام السياسى يوجد شيء اسمه « الدكتاتورية » ويوجد مقابل لها على النقيض اسمه « الديمقراطية » . واعذرونى في استعمال هذه الألفاظ الغريبة على اللغة وعلى الإسلام ، لأننا أخذنا كل حضارتنا مستوردة من الخارج .

النظام الدكتاتورى حين يحى ، لابد أن تكون فيه فكرة تروق الناس ، ثم تبحى في طيه الأشياء التى تكون في صالح الدكتاتور . فيقولون : إن كل أمر أردنا أن نصلح به المجتمع إن تركناه حتى نأخذ رأى جمهور الناس فيه لما اتفقنا على شيء ، ولتعطلت حركة الإصلاح ولكننا معوقون ، إلى أن نصل إلى أمر اتفاقى ، لأن الناس أهواؤهم مختلفة ، ولذلك جاءت القضية المشهورة « لا يصلح الشرق إلا مستبد عادل » . ومعنى مستبد عادل : أى لا يستطيع أحد أن يقول له : لم صنعت كذا ، بشرط أن يكون عادلا ، لا يفرض إلا ما هو حق . وهذا لكى يخرج من غوغالية النقاش ، وجماهيرية الاستفتاء .

إذن فالدكتاتورية لها لون قد يفيد في أن كثيرا من الأمور قد يراد البت فيها بسرعة وحزم ، دون أن تتدخل فيها الغوغائية ، طالما أن الذى يتولى ذلك سيحتاط لكل الأمر ، ولا يأتي إلا بقضايا عدل ، وقضايا حق . أما زاوية الشر فتأتى من الناحية الثانية .

والديمقراطية فيها ملامح جمالية . هو أن كل شيء لابد أن يتم برأى الجمهور . ولكن الجانب المقابل يقول لنا : إننا نؤجل كثيراً من الأعمال حتى ينتهى الجمهور إلى رأى . ويرد الديموقراطيون قائلين : ولكنها تكون نابعة من الكل ، لا من واحد يفرض هذا الملامح الجمالى . فهذه فيها حسن ، وتلك فيها حسن ، وبالتالي فى هذه مساوى ، وفى تلك مساوى ، بدليل أنه يوجد فى العصر الواحد القريب الإمكانيات ، والقريب الأجواء مبدأً متناقضان ، وكان المفروض ما دام العصر عصر ارتقاء يجب أن نرتقى فى المسائل .

ولو نظرت إلى دين الله لوجدته قد أخذ ملامح الجمال فى الدكتاتورية ، وترك ملامح القبح فيها . وأخذ ملامح الجمال فى الديمقراطية ، وترك ملامح القبح فيها . فأعطانا الأمرين بتسوية وبعادلة ، وأخذ من كل اتجاه خبيره .

فالأمر الذى يجب أن يبت فيها بحزم ، ولا تترك لأهواء البشر فيها مجال ، شرع الحق فيها تشريعاً لا يجعل لأحد مستدركاً عليها أبداً ، وتلك هى سمة الدكتاتورية وهناك أمور يمكن أن تؤدى جوانب الخير على أى وجه تبنى ، وهذه لا تتطلب السرعة ولا الحزم .

إذن فالحركة الحياتية محكومة بأمرين : أمر ضرورى أن يوجد سريعاً ومبتوتاً فيه بحزم ، وأمر تأتى هينة ، ومن الممكن أن تخضع لاختيار الناس ، لتحقيق لهم مبدأ الذاتية فى الاختيار ، حتى لا تكبت فيهم أدوات الاختيار ، وحتى يشعر الإنسان أن له رأياً فيها يقن له .

والدكتاتورية تستغل هذا الأمر فتقول : لو أخذنا آراء الناس فى كل قضية لتأجلت كثير من القضايا ، ودخل العجاج ، ودخل التناظر ، ودخل الاستعلاء ، ودخلت الجماهيرية ، فلا بد من أشياء نبت فيها . ذلك ناحية الجمال فيها ، وبعد ذلك تستر فى داخلها ناحية من نواحي الشر ، وتقدس فيها نواحي أخرى من النواحي التى لم تكن حيثة وجود الدكتاتورية .

والديمقراطية كذلك تدخل علينا من ناحية الجمال فيها .

ومن العجيب أننا نجد المبدعين موجودين في زمان تكان تكون الفرص فيه متكافئة ، والإمكانات واحدة ، والروح السائدة واحدة ، والارتقاءات واحدة . . إذن ففي كل المذاهب ناحية من نواحي الجمال ، ولكنها لا تكتفى بما فيها من ملامح الجمال ، بل تدس في أثنائها كثيراً من ملامح القبح .

والإسلام يمثل النظرتين . ففي الأمور التي يراد فيها البت والحزم يبتأ ويحزمها حزمًا ما يشبه حزم الدكتاتورية (وما كان مؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (١) .

حكم مبتوت فيه ، لأنه إذا قضى وحكم في أمر فقد منع الرأي فيه ، وأبقى التعصب الإيماني له ، فوفر طاقة الجدل واللجاجة إلى أن تكون طاقة نزوع ، وطاقة تطبيق ، وطاقة مراقبة .

وهناك أمور تركها هو سبحانه وتعالى للنفس الإنسانية التي تتميز بالعقل ، والعقل الذي مظهره الاختيار بين البديلات ، ترك له مجالاً لينمي فيه هذه الملكة ، وليكون الأمر بما تنتهي إليه هذه العقول المفكرة ، فيكون الإسلام قد جمع بين الميزتين : ميزة الحزم والبت في الأمور التي لا يريد أن يورججها أو يجعلها متراخية ، حتى لا تفوت الفائدة ، وأمور تركها إذا جاءت على أي وجه من الوجوه لم يحصل فيها شيء من الضرر .

في القضية الأولى يقول الحق سبحانه :

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض) (٢) .

وفي القضية الثانية يقول :

(ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) (٣) .

(وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) (٤) .

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٦ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ٧١ .

(٣) سورة النساء آية ٨٣ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

ولذلك كان يقال للمشرع الثاني محمد صلى الله عليه وسلم : أهذا أمر نزل به حكم من السماء ؟ يعنى إن كان قد نزل به حكم من السماء ، فلا رأى لنا فيه ، لأن السماء لها علم ليس لنا . . وإن لم يكن أمر من السماء وكانت الحرب والمكيدة نشر عليك .

هذا يمثل رأى الحازم ، وهذا يمثل رأى المستنبط . فمن أراد ديناً أو مذهباً يحقق الأمرين معاً مجده في الإسلام . ويمتاز الإسلام بأن الدكتاتورية فيه ليست لمساو ، يعنى ليس الدكتاتور مساوياً لك ، لأننى أنا وأنت جميعاً محكومون لإله واحد فوقنا ، آمننا به جميعاً ، وليس له هوى يخشى منه كما هو حال البشر .

إذن هو يعطينى نزعة الدكتاتورية بلاهوى ، وبسلا جبروت الدكتاتورية ، وبدون استعلاء الدكتاتور ، وبلا إذلال الدكتاتورية .

فهكذا يجب أن ينظر علماء الإسلام إلى قضايا الإسلام ، فلا يجعلوا الأمور التى زحزحها الله عن مجال الحكم البات الحازم الذى لا اختيار فيه ، لا يجعلوا هذه الأمور ضمن الأمور التى ترك الله لنا فيها الحرية والاختيار .

وآفة وجود المذاهب أن الأمر الذى تركه الله للمشورة والاجتهاد والاختيار جعلته كل طائفة أمراً واجب الحزم فيه والبت . . وأن الذى يخالف رأيهم فيه يكون مخالفاً للإسلام .

نقول لهذا : أنت لم تفهم الإسلام ، أمور الإسلام يجب أن تؤخذ من زاويتين : أمور محكوم فيها ، مخزوم فيها ، مبتوتة ، وأمور متروكة لنا لنستنبط ونجتهد . . وإلا فلو أراد الله الدين قالب حديد لا نتحرك فيه لسهل ذلك عليه . . ولكن فى ذلك إهداراً لما خلق الله من الاختيار بين البديلات للعقل إذا قهرنا قهراً على شىء كما قهر الحيوان والجماد على أشياء فسميناها مسخخة لا رأى لها ، وتلك سمة تنافى تكريم الله للإنسان حين جعل له اختياراً وخلقه مختاراً .

إذن فآفة المسلمين الذين يمثلون المذاهب ويمثلون الطائفية أنهم جعلوا الأمور التي أباح الله فيها الرأي ، وأباح فيها الاجتهاد ، وأباح فيها الترجيح أموراً محزوماً مبتوتاً فيها ، وليته كان محزوماً مبتوتاً فيه من الله الذي فوقنا ، والذي تؤمن به جميعاً ، ولكنه محزوم مبتوت فيه من جنس البشر . ولو أراد الله هكذا ما استطعنا أن نختلف فيه .

إذن فتلك هي الآفة التي جرأت علينا الخصوم فقالوا : إن الإسلام لم يعد دين تجميع وإنما أصبح دين تفريق .

كان في الماضي دين تجميع كما قال الله تعالى :

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) (١) إذن فالمسلمون الآن هم الذين فتحوا هذا الباب ، وفتحوا نوافذ جعلتهم يدخلون علينا منها ، ليهدموا لنا قضية إيماننا .

كلامنا الآن ليس مع أولئك الذين يتهموننا بذلك ، وإنما هو مع القوم الذين فتحوا هذا المجال لهؤلاء ليدخلوا .

نقول لهم : راجعوا فهم دينكم من جديد ، واعلموا أن القضايا التي بت الله فيها وحزمها ، قضايا لو ترك فيها الاختيار والحرية والاجتهاد لفسدت السموات والأرض . . . وهناك أمور ترك الله لنا فيها الاختيار ، لأننا على أي حال لن نجتمع إلا على خير . وقد ضربنا كثيراً من الأمثال لهذه المسائل .

انظروا إلى قول الحق جل وعلا في قضية الدخول إلى الصلاة . والدخول إلى الصلاة يكون بالوضوء ، فأية الوضوء فيها المنهج كله .

(إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق) (٢) .

آه لو فطنوا إلى التعميم في الوجوه وعدم التقيد فيها ، كما قيد في

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٣ .

(٢) سورة المائدة آية : ٦ .

الأيدي بقوله : ﴿إلى المرافق﴾ . إذن لأراحوا واستراحوا ، وعلموا منهج الله كما يريد الله .

الوجه لم يحددها الله ﴿اغسلوا وجوهكم﴾ وكفى . لم يحددها لأن الوجه لا اختلاف عند العرب في مفهومها ، ولكن الأيدي يقع فيها الاختلاف . . مرة تطلق ويراد بها الكف ، ومرة تطلق ويراد بها من الأنامل إلى المرافق ، ومرة تطلق ويراد بها إلى الكتف . وهذا إطلاق يقال له يد ، وهذا إطلاق يقال له يد ، وهذا إطلاق يقال له يد .

فلو أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ترك التقييد في اليد بقوله : ﴿إلى المرافق﴾ لكان لمجهد أن يقول : إلى هنا ، والآخر أن يقول : إلى هنا .

وماذا يكون لو ترك الأمر فيها اجتهداً لكل مجهد ؟ يقول : لا . لأن الله يريد على وجه محدود ، فجزم فيها جزماً أنهى الإشكال ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئاً فيها بعد .

فحين يريد الله حكماً باتاً ، فإنه يخرج من الإيهام ، ويأتى بالنص بحيث لا يختلف فيه أحد بعد .

ثم قال : ﴿وامسحوا برءوسكم﴾ . لم يقل : امسحوا رءوسكم ، كما قال : ﴿اغسلوا وجوهكم﴾ . هذا غسل صحيح ، وذاك مسح ، غسل نص عليه بالماء ، ومسح نص عليه بالماء والأمران فيهما اختلاف .

غسل ، يعنى لا بد أن يتقاطر الماء ، مسح ، يكفى إمرار اليد فلا يتقاطر الماء . المهم ما هو الممسوح ؟ لو كان يريد التحديد لقال : ربع رءوسكم ، نصف رءوسكم ، كان يحددها ، ومع ذلك لم يجعلها من باب اغسلوا وجوهكم ، ولم يجعلها من باب أيديكم إلى المرافق ، ولكنه جاء بالباء . والباء لها في اللغة إطلاقات متعددة ، وتحتل وجوهاً كثيرة .

وما دام الله قد عدل عن الأسلوب الذي قاله في ﴿اغسلوا وجوهكم﴾ ولم يقل : امسحوا رءوسكم ، ولم يحدد كما حدد في المرافق ، فقد جاء بالباء

ليكون إذناً من الله في أن كل ما تؤديه الباء من المعاني يمكن أن يؤخذ في إطلاقات الاجتهاد في هذا الموضوع .

ومن هنا قال قوم : الباء للاستعانة ، ويكون المسح لكل الرأس ، وقال قوم : المسح لا يكون إلا باليد ، فالممسوخ هو قدر اليد ، وهو الربع . وقال قوم : المراد بعض الرؤوس . فكل أخذ من معاني الباء ما يريد ، والله يريد لها للإباحة والاجتهاد ، فإذا ما ذهب مجتهد إلى أنها الكل ، ومجتهد آخر إلى أنها الربع ، ومجتهد ثالث إلى أنها بعض ولو شعرة ، فلكل صحيح .

والآفة أننا لم نحترم تعليل الله بوجود الباء لكل أمر مجتهد فيه . . . ولو احترمانه لاحترم من قال الكل من قال البعض ، واحترم من قال الربع ، لأن الباء احتملت ما قال ، واحتملت ما قاله الآخر ، وهي في نطاق الباء شائعة .

ولكن الآفة أن الذي يقول بهذا يحاول أن يجعل قوله هو الأصل . . . يا أخى ، لو كان الله يريد من المسألة أصلاً لا تترشح عنه لكان - وهو صاحب التشريع - أولى بأن يحددها ، ولكنه حين لم يحددها فقد احترم وجهة النظر ، فإذا جاءت على أى وجه فهي مقبولة عنده . وما دامت مقبولة عنده فليس لنا أن نلزم بفعلنا نحن .

وبعض الناس يظن أن ما وصل إليه هو الحق ، وما وصل إليه من غيره هو الباطل ، وهذا لا يمثل وجهة نظر الإسلام . ومن هنا جاء الخلط .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدع المسألة في فهم نص ، ولكنه جاء لنا بواقع تطبيقي ليدلنا على أن أمر المشرع إن كان محكماً فلا مجال لاجتهاد أحد ، وإن كان محتملاً فالمشرع نفسه شرع الاحتمال ، وما دام قد شرع الاحتمال فقد نشأ عن هذا قضية أصولية : هل الحق واحد أصابه واحد من المجتهدين وأخطأه الباقيون ؟

ونقول : إن المحكم يكون الحق فيه واحداً . أما المتشابه فالحق فيه متعدد ، والحق هو ما وصل إليه المجتهد ، ما دام المشرع قد جاء بنص يحتمل الاجتهاد

الرسول صلى الله عليه وسلم جاء في مسألة غزوة الأحزاب ، أو الخندق .
لم يكذ القوم يستريحون من غزوة الأحزاب حتى أمرهم الرسول بما أوحى
الله بواسطة جبريل عليه السلام من أن الملائكة لم تخلع لباس الحرب ، ولا بد
أن نذهب إلى بني قريظة لتأديبهم . . . فقال صلى الله عليه وسلم : « من كان
يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة » .

يجب أن يتنبه المجتهدون في الإسلام ، والمشتغلون بالإسلام بوجه عام
إلى مثل هذه القضايا ، حتى لا تكفر طائفة بفهمها طائفة أخرى بفهمها ، ما دام
الفهمان متواردين على نص واحد يحتمل الفهم ، ومن إله قادر على أن
يمنع احتمال النص بالبت فيه بحكم قاطع .
الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا في الطريق .

فريق قال : المغرب يوشك أن يأتي ، والشمس توشك أن تغيب ،
ولم نصل العصر إلى الآن ، ونحن في طريقنا إلى بني قريظة كما أمر الرسول
صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن نصلي العصر الآن .

وفريق قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فلا يصلين
العصر إلا في بني قريظة » ولم نصل بعد إلى بني قريظة .
قوم صابوا . . . وقوم لم يصلوا . . . ولما ذهبوا إلى المشرع صلى
الله عليه وسلم أقر هؤلاء وأقر هؤلاء .

إقراره لهذا ولهذا كان يجب أن يكون دستوراً للفاهمين عند الله ، والفقهاء
الذين يستنبطون الأحكام من الله ، وأن يعلموا أن الله والرسول حين يترك
نصاً محتملاً للفهم يجب أن يحترم كل فريق رأى الفريق الآخر ، أو يعتبره
على الأقل مساوياً لفهمه . أو يقول : أنا أصبت الحق ويحتمل الخطأ .
ورأى خصمى خطأً يحتمل الصواب .

وهنا أكون قد احترمت المرجح لي في الاستنباط لكنني لم أتهم سواي .
حينما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر هذا وأقر هذا في أمر

لم يرد الرسول أن يكون محكماً . فمن صلى لم يخالف . ، ومن لم يصل لم يخالف ،
فهما سواء مع الأمر الآخر .

وإذا أردنا أن نقعد هذه القاعدة لتوضيحها نقول :

الصلاة حدث ، والحدث له زمان وله مكان ، ولا يوجد الزمان والمكان
إلا إن وجد الحدث ، وإن وجد الحدث لا بد أن يكون له زمان ومكان . . .
والصلاة حدث يطلب منا الإيمان أن نفعله ، والرسول هنا قال قولا حدد ماذا؟
حدد الحدث ، ثم قال : « إلا في بني قريظة » . فحدد المكان ، وترك الزمان .

فالذى تعصب أن يصلى قبل مغيب الشمس قال : إن الحدث له زمان ،
فاحترم الزمان ، وقال : أنا أصليه في زمانه في أى مكان . والذى تعصب
ألا يصلى قال : « إلا في بني قريظة » فأنا أصليه في المكان في أى زمن .

فالرسول صلى الله عليه وسلم احترم هذا واحترم هذا ، لأن كلا منهما
نظر إلى طرف من طرفي الحدث .

كل الأحكام الاجتهادية التي تركها التشريع للبشر فيها إذن من الله أن
كل ما وصل الاجتهاد يقبله الله ، ويعتبره حقاً .

ولكن المجتهدين أو أتباع المجتهدين أو المريدين يجعلون فهمهم هو
الأصل ، فكأنهم نقلوا الأحكام من المشرع إلى الإحكام في الفهم .

نقول لهم : لا . لاحق لكم في ذلك ، فلو أراد الله الحكم باتاً لبينه
باتاً ﴿ ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم
الخير من أمرهم ﴾ .

إذن الشيء الذى ينفذ منه خصوم الإسلام هو ما يفعله بعض علماء
الإسلام ، أو بعض أتباعهم ، حين يرون في اجتهاداتهم التي أباح الله
الاجتهاد فيها أصلاً لا يصح أن يترك ، ومن هنا نشأت النكبة على المسلمين
في جميع بقاع الأرض .

ولذلك نجد إسلام دولة منتقداً من إسلام دولة أخرى ، لأنهم أرادوا أن يجعلوا من فهمهم للأمور المجتهد فيها نصاً محكماً ، ومن خالفه فهو مخطئ . ولم ينظروا إلى آثار ذلك من الهجوم علينا في أن الإسلام لم يعد دين تجميع ، وإنما أصبح دين تفريق .

ونحن في البلد الواحد نشاهد ذلك الآن . ففي كل حي طوائف ولو نظرت إلى إسلام هؤلاء لوجدته بعيداً عن إسلام هؤلاء ، لماذا ؟ لأنهم جعلوا لشيوخهم فهماً من لم يسر عليه فهو مخالف للإسلام ، ألم ينظروا إلى تبعات هذه الأشياء ، هذه التبعات التي سنشتق بها طويلاً من خصوم الإسلام .

التحقيق والتطبيق

وقد ذكروا صفحات طويلة عن مصر . . . وفيها : نريد أن نسأل المسلمين في مصر ، وفيها الأزهر الذى يدعى أنه الحريص على الإسلام ، والمحافظ عليه :

أى الإسلام هو الخير وهو الحق : هل هو الإسلام فى المساجد التى تديرها وزارة الأوقاف ، أو الإسلام فى المساجد الأهلية التى تنبث فى سائر أنحاء القطر ، ويقوم فيها أناس يهاجمون الإسلام فى المساجد الأوقافية ؟

وهم معذورون فى ذلك . . . لأن مصر فى الحقيقة هى بلد تحقيق الإسلام . وتحقيق الإسلام معناه : توضيح قضاياها توضيحاً لا لبس فيه . . . ومصر وإن لم تكن البلد لتطبيق الإسلام ، فلا يجادل أحد فى أنها البلد لتحقيق الإسلام .

وهم لا يتكلمون عن تطبيق الإسلام ، لأنهم يقولون : إن جمهرة المسلمين فى مصر لا تطبق الإسلام . . . إذن فهم يحاكمون مصر لا من أجل تطبيق الإسلام ، ولكن من أجل تحقيق الإسلام . . . فيسألون :

أى إسلام هذه المساجد هو الحق عندكم وعند الله ، هل هو إسلام المساجد التى ينادى فيها بعد الأذان بالصلاة على رسول الله ، أم إسلام المساجد الأخرى التى تقول ان هذا عمل مخالف للإسلام ، وتحمل عليه حملة عنيفة ؟

ونقول : هم محقون فى هذا ، لأن كثيراً من الذين يؤذنون يجهلون الموقف الحق للدين من هذه المسألة ، ويعتبرون المسألة أدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدين ليس أدباً فقط ، وإنما هو فى الأصل طاعة . . والطاعة هى الأدب .

يجب أن نطيع رسول الله فيما شرع رسول الله . ولا تتجمل أنت على رسول الله بما لم يشرعه رسول الله . فالأذان أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصيغة ، وبلا صلاة عليه فى آخره . .

صحيح أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول » ثم صلوا على .
فالذين التزموا الأدب قبل الطاعة جعلوا المؤذن مع المصلين عليه ، وهذا
لا شك فيه ، المؤذن يصلي عليه بعد الأذان . . . ولكن ليس بلهجة الأذان
الجاهرة ، بل يصلي عليه في سره حتى لا يدخل على الأذان ما ليس منه ،
لأن الدين دين طاعة وأدب ، وليس دين أدب فقط .

حين يأخذون علينا هذا يجب أن نحمد لهم أنهم نبهونا إلى شيء لم يكن
وجوده ضرورة في الدين ، ولكن وجوده أدخل التشكك في نفوس غير
المتدينين ليدخلوا منه على الدين ، فقالوا :

أى الإسلام خير ؟ هذا يقول : ذاك باطل ، وذاك يقول : هذا باطل ،
وهكذا إذن فما أحرانا أن نتجنب هذه الأشياء .

نحن نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونعظمه ، ونبجله ، ونوقره ،
ونزداد منزلة عند الله عندما نصلي عليه ، ولكن لكل مقام مقالته التشريعي ،
فما دام ذلك لم يرد في الأذان فليصل المؤذن والسماع في سره على رسول الله
صلى الله عليه وسلم . وبذلك نقطع على مريد الكيد للإسلام منفذا يدخلون
منه على الإسلام ، مما يغضب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هناك أشياء كثيرة يكون الأدب فيها شيئا ، والطاعة شيئا آخر .

وكذلك يقولون : قولوا لنا : أتقولون أيها المسلمون : اللهم صل على
محمد ، أم اللهم صل على سيدنا محمد ؟ وتقولون : أشهد ألا إله إلا الله وأن
محمداً رسول الله ، أم أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ؟ .

ونقول : أما الشهادتان فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا
كما رأيتموني أصلي » : وحين كان يصلي كان يقول في تشهده : وأشهد
أن محمداً رسول الله ، فإن أردنا الطاعة فلنفعل هذا .

ولكن الناس يفعلون عند ذكر رسول الله بالحب ، فيستكفوا أن

يذكروا اسم رسول الله دون أن يقدموا له بسيدنا . . . وهم مشكورون على هذا ، ولكن الأدب شيء والطاعة شيء آخر .

الطاعة . . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .

ولكن الذين وقفوا ضد هذه المسألة ليخطئوا من يحذف السيادة حاولوا أن يحتجوا لذلك ، وما كان أغناهم أن يحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل : وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله في التشهد ، لأنه لا يقول عن نفسه هذا . . . ما كان أغناهم عن أن يلتمسوا دليلاً ، لأننا نصلي كما صلى ، وهو مطلوب منه أن يصلي على نفسه ، ولم يقل : اللهم صل على سيدنا محمد ، فنحن نصلي مثله . إذن ليس في ذلك قدح .

أرأيت لو أنك قرأت القرآن كله في ركوعك ، ولم تقل سبحان ربي العظيم ، أكنت قد أديت الصلاة كما يريد الله ؟ ولو قرأت القرآن مكان التشهد ما نفعك . فالطاعة شيء ، والأدب شيء آخر .

وما يدرينا أن الله تعالى يأتينا بأشياء قد يتطلب الأدب فيها وصفاً . ولكنه يريد بأمره أن يخرجنا عن هذا الأدب . . . العبودية التزام لا عبودية أدب فقط .

إذن ما أغنانا عن الدخول في هذه المتاهات .

وعلى الذين يأتون بعد الأذان ويعلمونها صلاة أن يصلوا في نفوسهم سراً ، وما على الذين يؤدون التحيات إلا أن يؤدوها كما أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونستغني بذلك عن أن نقول احتجاجاً لرأينا : قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تسيدوني في الصلاة .

ونقول لمن يورد هذا الدليل : هذا الكلام لا يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعم بطلان الدليل لا يمنع صحة المدلول ، ونحن لا نناقشك في أننا يجب أن نمنع هذه البدعة ، لكن لا يصح لك أن تورد هذا الدليل .

وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش » . لأن قريشاً تعطيه فصاحة أكثر .

فلو كانت هذه المقولة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقال : لا تسودونى فى الصلاة ، لأن الفعل ساد واوى ، ساد يسود ، فلا تكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاسيما وأن القضية مؤيدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة الفعلية ، صلوا كما رأيتمونى أصلى . بل إن هذه القضية برمتها تورث الشقاق والعراك بين البلاد والفتات ، وهو عراك يسجل علينا ، ويستغل ضدنا .

القبور في المساجد

ومما قالوه أيضاً : إن كثيراً من المسلمين يكفرون من يصلي في مسجد ألحق بقبر من القبور . وهذا واقع ، وله آثاره .

ولذلك كان يجب أن نجلس لنفهم هذه المسألة . فالمانعون يتخذون من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . دليلاً لهم . وهذا هو دليلهم .

نقول : القبر عندنا لم يتخذ مسجداً . . فالقبر هو المكان الذي دفن فيه الميت ، هو مضجع الميت . فهل اتخذ المسلمون القبر مسجداً ؟ أبداً ، لم يتخذوه مسجداً ، وإنما جعلوا القبر قبراً ألحق به مسجد وحول القبر شيء اسمه « المقصورة » .

وكلمة مقصورة معناها شيء محبوس على القبرية لا يتعدها إلى شيء آخر . وربما جعلوا سياجات : سياجا من خشب ، وسياجا من حديد ، لئلا يتخذه أحد مسجداً .

ثم نقول : هل اشترط أحد أن تصلي في مساجد فيها قبور ؟ لم يشترط أحد ذلك ، فما أغنانا عن أن نجعل نفس القبر أو المقام مسجداً ، ما دام الشرع لم يأمر به ، وبعد ذلك ندخل في عراق مع الغير .

لماذا لا نغلق هذه المسألة ؟ الذي يريد أن يحمي الإسلام لا يجعل فيه ثغرة للغير يدخل منها إليه بالنقد : ذلك ما يمكن أن نقوله للمجيز وللمعارض ، نتكلم مع هذا ومع ذاك .

إذا أقنعتهم بأنهم لا يتخذون القبر مسجداً يقولون لك : إنهم يصلون في القبر . نقول : يا سيدى سواء مرة يجعلون القبر وراءهم ، ومرة يجعلونه أمامهم . والأمامية غير ملحوظة ، ومرة يجعلونه عن أيمنهم ، ومرة عن شمائلهم .

ولكم في مسجد رسول الله أسوة ، فهناك من يصلى في الروضة ، ويكون قبر الرسول وأبى بكر وعمر على اليسار ، ويصلون في منزل الوحي ويكون القبر على اليمين ، ويصلون في الصفة ويكون القبر أمامهم ، ويصلون في المواجهة ، والقبر خلفهم . ومضى على ذلك علماء المسلمين دون ذكر منهم . يقولون : إنه مسجد رسول الله . ونقول لهم : وفيه أبو بكر وعمر : كان يجب أن نتهى هذه المسألة بيننا ، لأن أثرها ليس فيما بيننا :

صور من الربا

أتعلمون أن مسألة جرت بشأنها مناقشات بين العلماء ، ولم يمض على نشرها شهر أو شهر ونصف حتى دوت في هذه الكتب التي صدرت ضد الإسلام ؟ مما يدل على أن الضالعين في هذه الحركة هم من خصوم الإسلام الذين يكتبون الوقائع .

إنهم أثاروا ضجة حول شهادات الاستثمار ، وحول فوائد البنوك الربوية ، وحول من قال من العلماء بحلها ومن قال بحرمها وقالوا : أين الرأي الذي هو رأى الإسلام . . هؤلاء علماء وهؤلاء علماء ؟ وما كان أغنانا عن أن نعطي أعداء الإسلام أسلحة يتهمون بها على الإسلام . وما كان أحرانا أن نضع أمامنا أن الحلال بين والحرام بين .

نقول لكل فريق من المبيحين والمحرمين : أهذا هو رأى العلماء بالإجماع ؟ يقولون : لا . نقول لهم : وما رأى بقية العلماء دونكم أنتم الذين تعدون على الأصابع يا من تقولون بالحرمة . ما دام جمهرة العلماء قالوا بالحرمة ، وبعضكم قال بالحل ، فعلى الأقل لن ننسخ رأيكم برأى الجمهور ، ولكن نستخدمه ، ولكن أنت تمثل وجهة نظر ، وهم يمثلون وجهة نظر ، وهذا يدخل في المشبهة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يحسم قضايا الخلاف . وقضايا الخلاف دائماً هي مثار الفتنة . فهم يقولون : أى آراء العلماء صحيح ؟ وأى الإسلام صحيح ؟

أنتم أيها العلماء المبيحون تقولون : نحن نعيش العصر . وقولكم : نحن نعيش العصر معناه أن العصر هو المشرع . نقول لهم : ضعوا عباراتكم . قد تقولون هذا عن حسن نية ، ولكن رجل الدين دائماً يقول : نحن نعيش الدين ، وليخضع العصر أنفه لمنطق الدين .

هل ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه القضية بدون حسم ؟
لا . بل هو قال : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات »
أى يخفى فيها وجه الحل أو وجه الحرمة « فمن ترك ما شبه له فقد استبرأ
لدينه وعرضه » .

فها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك هذه القضية ، بل حكم فيها
لماذا رجح الرسول جانب « ترك » على جانب « فعل » ؟ لأنه يتكلم عن
الاستبراء للدين والعرض : فإن أردت أن تستبرىء لدينك ولعرضك
فاترك أن تفعل ، واجعله حراماً . وإن لم أجعله حراماً ، ولجأت إلى جانب
التحليل ، فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله :
« فمن ترك » . مخالفة صريحة .

وإذا كان الذى ترك قد استبرأ لدينه وعرضه ، فمن لم يترك لم يستبرىء
لدينه وعرضه .

وهل الدين مخالف للعرض ؟

نعم . . استبرأت لدينك ، يعنى : أنك ستستبرىء أن يأخذ واحد عنك
حكماً ، ويبقى وزره عليك مدى الحياة ، واستبرأت لعرضك يعنى : لئلا
يلغ الناس في عرضك ويقولون : دينه رقيق ، غير متمكن ، وتكون
قد تسببت لهم في الوقوع في الغيبة .

إذن لا بد أن نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك مثل هذه
القضية ، وإنما شرع لها . . وحين شرع لها ، فقد أخرجنا من المشتبه . .
فعلى هؤلاء العلماء أن يلتفتوا جيداً إلى النص عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، حتى يقولوا قولة الحق في مثل هذه المسائل ، حتى إهم إن فتنوا
بآرائهم ، وفتنوا بفتاواهم ، يعودون سريعاً إلى حظيرة الحق بالحق .
وحيث أن يكونون قد استبرءوا بحق لدينهم وعرضهم :

وعلى الذين يستقبلون هذه الفتاوى — إن لم يجدوا من العلماء من يترك

هذه الشبهات حتى يستبرئ لدينه وعرضه - أن يستبرئوا هم لدينهم وعرضهم ،
لأنه سيأتي اليوم الذي يتبرأ فيه المتبوعون من التابعين ، ويقول التابعون :
(لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا) (١) .

وينجب أن يعلم هؤلاء العلماء أنهم سيلجئون بهذا الفعل ضللاً في
اعتقادهم ، وإضللاً لغيرهم ، وذلك وزر ، وهذا وزر آخر ، ليصدق
فيهم قول الحق سبحانه :

(ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) (٢) .

وأقول للذين أخشى أن يفتنوا بهذه القضية : جربوها في أنفسكم .
واسألوا من كان يتعامل فيما يقول هؤلاء : إنه حلال ، كيف كان حاله
من قبل ، وكيف صار حاله بعد أن ترك هذا .

كل واحد حجة على نفسه ، أسأل الله هؤلاء أن يثوبوا إلى رشدهم ،
واسأل الله لمن يريدون أن ينتفعوا بهذه الفتوى أن يفيقوا من سكرهم .
ويجب علينا جميعاً أن نعلم أن كل خلاف يجد بين المسلمين خلاف
يستغل ضد الإسلام ، فالذي يسمع شيئاً من هذا ، إما مفتياً وإما سامعاً ،
وإما مطبقاً ، سيكون ممسكاً بمحول ليهدم به قضية الإسلام .

وإذا ما تركنا هذا الأمر جانباً ، فيجب أن نعلم أن هناك اناساً لم يقدرُوا
على أنفسهم لينصاعوا لحكم الله في حركة حياتهم ، فمن حظهم أن تكون
قضية الدين قضية كاذبة ، ومن حظهم أن يتخاصم رجال الدين ليجدوا
لأنفسهم مبرراً في أنهم لم يلتزموا .

وهؤلاء جميعاً مجرمون عندنا ، العلماء ، والمطبقون للفتاوى غير الدقيقة
التي يقول بها بعض العلماء .

(١) سورة البقرة آية : ١٦٧ .

(٢) سورة النحل آية : ٢٥ .

فريضة تضارب الرسول مع القرآن

ويقولون بعضهم لبعض عن المسلمين : جادلوهم بمنطق القرآن ، ومنطق الحديث . مما يدل على أن المخططين لهذا الأمر قرءوا القرآن جيداً ، وقرءوه بفهم ، وقرءوا الحديث جيداً ، وقرءوه بفهم . إلا أنهم لم يقرءوه بنور . . . وهناك فرق بين الفهم والنور : الفهم : أن يأخذ القضية ويجد لها مبرراً سطحياً ، ولذلك قالوا : القرآن فيه تناقض ، بينما هو ظاهره التناقض فقط ، لأن القرآن من لدن حكيم ، وكل شيء فيه له حكمة وله معنى :

القرآن يلح علينا في أن نتدبر . معنى التدبر : ألا ننظر إلى واجهة معطيات الأشياء فقط ، ولكن ننظر إلى خلفيات المعطيات من دبر الأشياء .

المؤمن ينظر إلى الأمام والحلف . . . والمخالف ينظر إلى الأمام فقط . . . إلى المواجهة ، فإن كان الظاهر التعارض . قال : إنه متعارض ، ولا يتدبر .

قالوا : الرسول الذي جاء القرآن على لسانه ، وقال : إنه من عند الله أول من تضارب مع القرآن . كيف يقول القرآن : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (١) . ثم يأتي فيقول : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » . ومعنى أنتم أعلم بشئون دنياكم كما يقولون : أن ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ نص غير فعال على رأيهم .

ونقول : الذي قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » أليس هو رسول الله ؟ نعم هو رسول الله . أليس الذي قال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ هو الله ؟ نعم هو الله . هل قبض محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يقول الثانية ؟ إذن هو بلغ هذه وقال هذه . إذن لا بد أن تكون الجهة منفكة .

الله قال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ . وفي النهاية آتانا الرسول فقال :

« أنتم أعلم بشئون دنياكم » . إذن هناك وجهان للمسألة . وإنما يأتي التضارب إذا كانت المسألة منصبية على شيء واحد .

الإسلام جاء بقوانين . هناك أمور تختلف فيها الأهواء ، فتدخل فيها ، حتى لا يختلف الناس فيها . وهناك قوانين علمية خاضعة للتجربة ، ولا دخل للهوى فيها ، لأننا لا نرى عالماً من العلماء يدخل معملاً ليتفاعل مع العناصر بهوى عنده . . لو دخل بهوى لا ينتج . بل هو يدخل بغير هوى ، وما تعطيه المادة الصماء يكون هو القانون . وهذا لا يقنن له الإسلام .

إذن هناك أمور مادية كونية تجريبية . وأمور تخضع للهوى . وإذا نظرنا إلى العالم المعاصر وجدنا هاتين الموجتين تحكمان حركة الحياة فيه : حركة خاضعة للهوى ، وحركة خاضعة للعلم والتجربة . وسنجد التجربة حكمت الجميع فلم يشذ عنها واحد ، وسنجد الهوى فرق الجميع فلا يجتمع عليه اثنان .

فالرسول صلى الله عليه وسلم حين يقول ذلك إنما يضع قاعدة كلية عامة تسير جنباً إلى جنب مع منهج الله السماوى . فمنهج الله السماوى أن الله خلق الكون بنواميسه وعناصره وأجناسه وقوانينه ، وهذه الأمور تخضع للتجربة العملية ، سواء قام بها مؤمن أو كافر . فهي تعطى ثمرتها للمؤمن والكافر معاً كما أن الله سبحانه يعطى العطاء ويؤتى خير الأرض لمن آمن به ومن كفر به على السواء .

وفي هذه القضية يجب أن نفرق بين إمامة المسلمين حين يضعها الله فيمن يؤتمن عليها ، وبين رزق أهل الأرض . فإبراهيم عليه السلام حين ابتلاه الله بكلمات . أى مطلوبات ، فأتمهن . أى أداهن على أكمل ما يكون الأداء ، قال الله له : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ (١) . لأنك أوتمنت على مطلوبات الله فأديتها على خير وجه . فأنت أهل لان تؤمن على الإمامة . قال إبراهيم : ﴿ ومن ذريتي ﴾ (١) . فقال الله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ (١) .

فكان الإمامة عهد من الله للمؤمن عليها ، وتلك مسألة لا تخضع للجنس ولا للدم ، ولا لنسب اللحم. لقد قال الله : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ وإن كانوا من أبنائك . وهذه قضية أخذها إبراهيم من ربه .

ولذلك حينما ذهب إلى الوادي غير ذى الزرع دعا الله بموجب الحنان لابنه وزوجته أن يرزق هؤلاء من الثمرات فقال : ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ (١) — من آمن ومن كفر — أرزقه أيضاً . . لأنك خلطت بين عهد الإمامة الإيمانية وبين الرزق .

فحين قلت : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ سجلت الأمر على الرزق فقلت : « من آمن » فقال الله : « ومن كفر » .

إذن فمسألة الرزق بنواميسه يستوى فيها المؤمن والكافر ، ولذلك كانت كل التجارب فيه لا تخضع لقضية الإيمان ، لكن تخضع لقضية الحركة في الأرض . فمن تحرك أوتى خيرها ، وإن كان كافرا .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نهاهم عن تأبير النخل أى تلقيحه ، أخذها من قضية أن الله سبحانه يخلق ما يشاء ، وأنهم لو لم يلقحوه لصلح النخل . ولكن المسألة التجريبية خذلت هذه الفكرة . فجاءت التجربة بأن النخل شاص . فماذا يكون موقفه ؟

موقفه أن يرد المسألة إلى الربوبية وقضية الأسباب ، وإعطاء التجربة حقها ، وتجعل التجربة على لسان المشرع صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى يعطى التجربة ، ويعطيها المعنى . فالسواء لا دخل لها فيها ، لأنها آتت أسباب الرزق ، وأنتم تجتهدون ، فقال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

فرسول الله هو الذى منع التأبير ، وهو الذى قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » . فيجب أن نأخذ قضية أنتم أعلم من القضية المنهى عنها وهى قضية التأبير . . . وهى قضية تجريبية عملية .

إذن فالرسول يجعلها فى نفسه وفاقاً للمشرع العالم حين يضع قضية . فيجعلها مطبقة على نفسه أولاً . فلم يمنع أى اعتبار من أن يؤصل هذه القضية لتكون دستوراً للعالم كله فى كل أمر تجريبى ومعملى .

والقضايا التى يجد الحق فيها غضاضة على النفوس كان يأتى بها على حكم الرسول فى نفسه وفى شخصه . ولذلك قلنا : إن النبى صلى الله عليه وسلم تحمل مسألة إبطال التبنى فى شخصه . فكان التبنى معروفاً عند العرب ، فجاء الإسلام ليبطله ، لأن المسألة فى التبنى تتعدى جميع الآثار إلى قضية البنوة ، فإذا جعلت الولد ابناً لك ولك ابنة ، أصبح أن يراها ويعاشرها ؟ فالمسألة حينئذ تتعدى مسألة الحنان إلى مسائل أخرى .

فالإسلام حين أراد أن يبطل التبنى ، وهو شائع فى العرب ، كانت التجربة فى الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم ، مع أن هذه التجربة قد جرت علينا متاعب كثيرة ، حتى قالوا : لقد تزوج الرسول زوجة ابنه . ولكن قضية زواجه هى نفسها قضية زيد . قال الله له : تزوجها لتثبت لهم بطلان التبنى . ورسول الله دائماً هو موضع الأسوة الراقية . . المسلمون فقراء . فعاش فقيراً مثلهم ، هم يلبسون ملابس متعددة وهو يلبس لباساً خشناً ، إذا تكلم معه أحد لا يذهب حتى يذهب هو ، وإذا أخذ أحد بيده لم يسحب يده حتى يسحبها هو .

وكذلك هو فى قضية تأبير النخل ، فكأنه يقول : أنا أتدخل فى أموركم التى تخضع للهوى . . هنا تتدخل السماء لتعصمكم من اختلاف الأهواء .

ولكن المسائل المحكومة بقوانين صماء جامدة فهي تعطى نتيجة واحدة .
ولا تختلف باختلاف الهوى معها .

العالم الآن تسوده موجتان : الأولى موجة نظرية ، أى فيها الهوى .
والثانية موجة عملية . والحضارات التى نعيشها الآن حضارات عملية ،
مبنية على التجربة التى اكتشفت كثيراً من أسرار الله فى الخلق ، فاستفدنا بها ،
وأثرت فىنا .

ونحن نعجب لأن الأمور الأهوائية النظرية يحاول كل صاحب نظرية
أن يمنع النظرية المقابلة من أن تتسلل إليه ، فيضع العوائق والسدود أمامها .
أما الأمور العملية فيحاول أن يتلصص عليها ويسرقها ، ليستفيد منها .

إذن فالأمور العملية لا هوى فيها ، بل الأمور فيها خاضعة للتجربة ،
والتجربة لا تجامل ، فالله سبحانه وتعالى أنطق رسوله بأن يقول : « أنتم
أعلم بشئون دنياكم » أى هذه المسائل التجريبية ما دمتم جربتموها ، فالسما
لا تتدخل فيها ، لأن السماء وهبت الشئ ، وهبت العقل ، وهبت
الناموس ، وهبت العقول والجوارح لتعمل .

ظلم العلماء

ومن الأشياء التي عابوها على ديننا : أن العلماء الذين ابتكروا الأشياء النافعة والمفيدة وبخاصة في مجال الأمراض التي تفتك بالبشر ، فكان ما ابتكروه نهاية لتلك الآلام . . والعلماء الذين أفتوا حياتهم في ابتكار أشياء ترفه عن الناس ، وتسعدهم ، وتوفر عليهم جهدهم ، لأنها تعطيهم الثمرة بأقل مجهود وفي أقل زمن . . قالوا : الإسلام يقول : إن الله لا يجزيهم ، وليس لهم عند الله نصيب .

يريدون أن يحمسوا الناس ضد الإسلام الذي يقول هذا ، لأنك إذا عولجت من مرض بدواء ابتكره عالم غير مسلم قلت : وهل الإسلام يحرم هذا العالم من الجزاء ؟ فكأن الإسلام لا يعدل في الجزاء .

وهؤلاء نقول لهم : ما حظ الإنسان من حركته ؟ مطلق الإنسان ، لماذا يتحرك في الحياة ؟ يتحرك الإنسان لغاية أولى هي نفع نفسه اقتياتاً لإبقاء حياته ، وكذلك من يعوله . فإذا ما فعلت لإنسان شيئاً ففعلك هذا أساساً لتأخذ أجراً ، لتأخذ القوت وتقتات . . والذي فعلت له ما مقصده ؟ مقصده أنه لا يقدر على الحركة ، فجاء بك لتتحرك له هذه الحركة . وبالتالي لابد أن تكون حركتك هذه نافعة له .

إذن فحركتك إما أن تكون نافعة لك ، أو نافعة لغيرك . لماذا أعطاك غيرك الأجر ؟ لأنك فعلت له . فعلت له أو لنفسك ؟ فعلت لنفسك أولاً : ولماذا أعطاك الأجر ؟ أعطاك الأجر من أجل نفسه هو .

إذن فقضية الأجر على العمل إما أن تكون عند الفاعل المباشر ، أو تكون عند المفعول له .

أيعمل لك واحد عملاً ، ثم يطالب غيرك بالأجر ؟ الأجر يدفعه من

عملت له . وهذا الكافر ، أكان الله في باله ساعة ابتكر ؟ أكان الله في باله ساعة أتعب نفسه في معمله ؟ لا . إنما كان في باله جاهه وشرفه بالعلم ، وشهرته والمال . إذن لم يكن الله في باله .

إذن فالذى عمل من أجله أعطاه الأجر ، تقديرآ وتكريماً ومالا وشهرة وشهادات. فإذا ما جاء الله يوم الجزاء أعطيه أجراً وهو لم يكن في باله ؟ هذا هو الفارق بين المؤمن والكافر ، حتى في العمل الذى يقوت به الإنسان نفسه . . الكافر يعمل لذاته ، والمؤمن يعمل لأن الله أمره أن يتحرك حركة تسعه وتسع غير القادر على الحركة .

فالله في باله ما دام يتحرك حركة فوق حاجته ، لأنه يقضى حاجته ويرد الباقي على غير القادر . فالله يعطيه الجزاء .

والحق بصور لنا هذه الصورة تصويرآ واضحآ فيقول :
(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه) (١) .
ويقول : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (٢) .

ويقول : (وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) (٣) .
فإذا تنتظر أن يعطى الله لمن لم يكن الله في باله ساعة فعل . . هذه عدالة . . اجتهد فأعطاه الله النتيجة . أخذ حظه من الدنيا ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « فعلت ليقال وقد قيل » .

إذن إذا حدثنا بأن الذين كفروا بربههم أعمالهم كسراب بقيعة فليست هذه نظرة الإسلام فقط ، بل هي نظرة الأديان جميعاً .
فإذا جاءت آية (إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً) (٤) . فأجره أن الناس تقدره ، وتصنع له التماثيل ، ويعطونه الجاه ، ويعود عليه عمله بالمال الوفير في الدنيا ، إنما عند الله فلا شيء له .

(١) سورة النور آية : ٢٩ . (٢) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

(٣) سورة الكهف آيتا ١٠٣ ، ١٠٤ . (٤) سورة الكهف آية : ٣٠ .

الإسلام والتخلف الحضارى

ومن الأشياء التى يذيعونها ، ويؤثرون بها على الشباب المسلم أنهم يقولون : إن إسلامهم أوقفهم فى الأرض موقف التخلف ، وجعلهم فى الأرض فى منزلة الأتباع دائماً . . . يعنى أن العالم الإسلامى كله فقير متخلف.

ونحن لا ننكر هذه القضية ، ولكن حتى لا نبثها فى نفوس شبابنا فيقفوا ضد الدين نقول لهم : أو ذلك الأمر الذى عرض للمسلمين فى هذا العصر ، كان أمراً لازماً لهم فى كل العصور كمسلمين ؟

الجواب منهم : لا ، لأنهم كانوا يسمون عصورهم فى أوروبا بالعصور المظلمة فى القرون الوسطى ، ونحن كنا فى غاية الارتقاء . . فالرشيد أرسل إلى شلمان ساعة دقاقة تدق بالماء ، فلما وصلت إلى فرنسا قالوا : إن فيها شيطاناً .

وإذا ما أردنا أن نعرف مدى ارتقاء المسلمين بالإسلام فعلينا أن ننسب كل علم موجود الآن إلى أصله . . لنجد أن بذرة الرواد الأوائل فيه من علماء المسلمين ، وهم كانوا القنطرة التى عبر عليها الأوروبيون إلى حضارتهم . وهذا باعترافهم .

ولذلك نجد الآن فى مكتبة الكونجرس أن الرسم المعملى للأرض هو صورة عربى أمام إنبيقه ، مما يدل على أن المسلمين هم بذرة كل حضارة .

إذن فالتخلف ليس من طبيعة الإسلام . وإنما هو أمر طارئ على تحضرنا ، وهذا هو إقرارهم بأنفسهم . كما يقرون بأنهم أخذوا عنا كل شئ يدخل فى تكوين حضارتهم .

إذن فالإسلام جاء منذ أربعة عشر قرناً ، وأول من تأثر به أمة أمية متبدية ، وبعد ذلك قادت به أمما متحضرة كبرى هى : الروم والفرس ، وحكمهم بالنظام الإنسانى الراقى . . جماعة أمية جاءوا بالقوانين ، وطبقوها على الأمم على اختلافها .

ويشاء الله أن يجعل هذا الانتصار على جناحين : جناح شرقى فى فارس ، وجناح غربى فى الروم ، وهما أكبر دولتين متحضرتين فى العالم آنذاك .
وحينما رأوا ما جاء به الإسلام من نظام يحكم قضية الحياة ، ويدير سياسة الدنيا ، تهافتوا على الإسلام ، وعلى هذه الحضارة ، ولذلك ذهب الإسلام بقوتين : قوة اندفاع المعتنقين ، وقوة الجذب للطالبيين .
هذا دفع ، وهذا جذب . وهذا هو الرد على التعجب من انتصار الإسلام على يد أمة متبدية لا حظ لها من التقدم ولا الحضارة .. حدث ذلك لأن القوتين كانتا تعملان فى قوة : المسلمون يندفعون لينشروا دينهم ، والعالم المتحضر يثنى من آلام الحضارة ، فحين رأى ذلك النور انجذب إليه ، فأصبحت هناك قوة تدفع ، وقوة تجذب ، وهما قوتان كفيلتان بنشر الدين فى أرجاء العالم .

وإذا نظرنا إلى القضية نظرة ذاتية إيمانية يجب أن ننظر إلى المسلمين أنفسهم فى هذا الموضع لنعرف أن واقع المسلمين كمسلمين خذل قضية الإسلام كإسلام ، لأن الأعداء جعلوا من حال المسلمين حكماً على الإسلام ومنطقة العزل يجب أن تعزل بين الإسلام كدين ، وبين من يدعى أنه نسب إلى الإسلام فهو مسلم .

أى دين إذا اتبعه تابع له فقد يحكم على هذا التابع بأنه طائع ، وقد يحكم عليه بأنه عاص ، فلا تأخذوا من تصرفات العصاة حكماً على الإسلام . ولذلك فالذين يأخذون هذه التصرفات يقولون صادقين : إننا أئمة متخلفة . ولكن الحق أن هناك مسلمين متخلفين ، وليس هناك إسلام متخلف .

لو نظرنا على التحقيق لوجدنا أنهم تخلفوا لأنهم لم يكونوا مسلمين ، إذن فالتخلف ليس لكونهم مسلمين ، بدليل أنهم حين كانوا مسلمين كما عرفناهم فى التاريخ كان دينهم هو الغالب ، ووجدنا الحجة للإسلام فى أن الكنيسة كانت تسيطر على أوروبا ، وتقبض بيد من حديد على حركة كل مفكر فيها ، فلا يمكن أن يفكر حتى فى علم معملى ماذى . وكم عذب العلماء فى ليل العلم .

وكانت النتيجة أن الفكر كبت ، وأن العلماء اضطهدوا ، مما جعل المفكرين يبتعدون عن هذه المنطقة ، وكان من نتيجة ذلك أن وجد عهد اسمه العهد المظلم ، فلما قامت الثورات ضد الكنيسة ، ووضعت الكنيسة موضعها الطبيعي ، وجعلت سلطة البابا بعيدة عن نشاط العلم ، بدأت أوروبا ترتقي .

فلما ارتقت أوروبا جاء الذين يكرهون الدين فلم يقولوا : إن الكنيسة كانت تسيطر على العلم والعلماء فنشأ التأخر ، بل قالوا : إن الدين عوق الحضارة . . فلما حملوا الدين عبء الكنيسة ثبت عندهم أن الدين معوق للحضارة . . أخذوها قضية عامة نقلوها من سلطة البابا ، إلى سلطة الكنيسة . إلى الدين نفسه .

وهذا الدين الذي تحدثوا عنه هو الدين المسيحي في أمم مسيحية . ولكنهم نقلوه إلى المستغربين من أبنائنا ، ونشروه بواسطة أبواق المستشرقين ، وقالوا : إن الدين مطلق دين هو سبب التخلف . . والمستغربون من أبنائنا قلدوهم وقالوا : إن الدين سبب التخلف . . أخذوها من أوروبا ، من سلطة البابا ، ثم نقلوها نقلة إلى الكنيسة ، ثم نقلوها نقلة إلى المسيحية ، ثم عمموها في كل الدين .

أبواقنا من المستغربين أخذوا هذه القضايا ، ورددوها عندنا ، وليس عندهم خيرة إيمانية لا يعرفون شيئاً عن حقيقة الدين ، يرون أن الدين صلاة وصوم وعبادة فقط ، فلما سمعوا ذلك الكلام رددوه عندنا ، فأصبحت القضية أن الدين يدعو إلى التخلف .

وهذا خطأ . . حتى المسيحية لا تدعو إلى التخلف ، المسيحية قامت بالشحنة الروحية في مواجهة المادية البهتة اليهودية . . لم تقل : إني أتعرض لقضايا الحياة . . ولم تقل : إني أضع نظاماً للحياة .

فلما جاء الإسلام ووجد التعارض بين المادية القديمة والروحية الحديثة

كان لابد أن يجمع بين الأمرين في دين واحد هو الإسلام ، وفي كتاب واحد هو القرآن ، يعصمنا من الهوى والأمور الأخرى التي تضر بمسيرة العلم والحياة .

والدليل على ذلك وجود علماء معملين فهموا دينهم في تاريخ الإسلام ، وفهموا لفظة الدين إلى العلم التجريبي ، تلك اللفظة التي سبقت الدنيا في قوله تعالى :

(و كآين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) (١) وهذا ينص على إعراض الإنسان عن الآيات ، فكأنه بالمفهوم يقول : أى آية لا تعرض عنها ، لأن أى آية تضعها موضع التجربة والمشاهدة الدقيقة يمكنك أن تفيد منها فائدة عظيمة تعينك على التقدم في الحياة . وهذا هو أصل العلم التجريبي .

عصر البخار نشأ من ملاحظة بسيطة لاحظها أحد العلماء : . أخذ فكرته من قدر تغلى ، وتحتها النار ، فوجد غطاء القدر يرتفع ، لأن بداخلها بخاراً كثيراً ، وقد تحول البخار إلى طاقة تدفع ، ومن هنا نشأ عصر البخار .

والخواصات والطرادات كأنها الأعلام كما وصفها القرآن ، وحمولتها آلاف الأطنان ، نشأت بملاحظة بسيطة لاحظها عالم حينما نزل الحمام ، فوجد أن الماء قد ارتفع في الحمام ، لأنه أزاح قدراً من الماء حين نزل يساوى حجمه لاوزنه . فوجد أن هناك علاقة بين الحجم والوزن . أتى بقطعة من المعدن ووضعها في الماء فغطست ، وحينما فرغها طفت ، أخذ من هذا أن الغاطس على قدر الحمولة .

لكل هذا كان العلماء المسلمون حين يبحثون في العلم التجريبي يقولون :

(١) سورة يوسف آية : ١٠٥ .

نحن نبحث عن أسرار الله في الكون. فالإسلام يدعو إلى هذا، ولكن هل حال المسلم المنسوب للإسلام يضر بالإسلام؟ إذا رأيتم من يشرب الخمر فهل يضر هذا بالإسلام؟ لا . الإسلام يحرم شرب الخمر ، ولكننا نحن لم نقم عليه الحد .

ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى خطر الإهمال في الالتزام ولو كان الإهمال يسيراً . . لأن هذا التهاون سيكون فجوة يدخل منها أعداء الإسلام إلى الإسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل واحد منكم على ثغرة من ثغور الإسلام ، فليحذر الواحد منكم أن يوثى الإسلام من ثغرتة » .

كل مسلم يساوى حصناً ، فليحذر أن يوثى الإسلام من حصنه . . وأعداء الإسلام نظروا إلى المسلمين ، فوجدوا ثغرات ، فدخلوا على الإسلام من هذه الثغرات .

والسلوك المنهجي هو خير دعوة إلى الإسلام . . قال الله تعالى :

(ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) (١) .

قال لمن؟ قال لمن يرويه على السلوك السمع الطيب . . لفهم من ذاته إلى دينه وقال : خذ الدين من السلوك الملتزم . ها أنذا من المسلمين فانظروا إلى سلوكي .

ولهذا انتشر الإسلام بواسطة التجار الملتزمين ، من معاملاتهم على أساس أدب وورع الإسلام ، قل لهم : أنا هكذا لأنني مسلم .

ولذلك فكثير من المفكرين هدام إلى الإسلام أمور تمر بدون انتباه .
فالرسول كان أصحابه يخافون عليه من خصومه ، فكانوا يحرسونه ،
يفقدونه بأنفسهم ، هذا هو معنى الحراسة . وذلك لأن بقاء صاحب الفكرة
خير من بقاء حراسه .

الصديق في الغار عرض نفسه للخطر ، لأن الرسول لا يعوض ، أما هو
فيعوض . هذه شهادة بأن بقاءه خير من بقائهم .

وفي يوم من الأيام فوجئوا بأن الرسول قال لهم : انصرفوا عني ،
لأن الله قال لي :

(والله يعصمك من الناس) (١) .

أسلمت امرأة لهذا السبب . قال : إن الإنسان يغش الدنيا كلها ، ولكنه
لا يغش نفسه . ولهذا فمحمد ينقل فعلا عن الله .

والرجل الذي كتب كتاب « العطاء مائة » جعل أعظمهم وأولهم محمداً صلى
الله عليه وسلم ، وقال : هذا الرجل أعظم رجل في العالم لأنه مازال يحكم
ملايين المسلمين وهو في قبره .

المهمة التي يجب أن يعرفها كل مسلم أنه ساعة يفعل شيئاً مخالفاً لمنهج الله
فلينظر كم صد من الناس ، وكم أثار الشك في الدين في صدور ناس . .
ومن هنا حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أن يؤتى الدين من ثغره . .
واذكروا جيداً قول الرجل الذي أسلم : الحمد لله الذي هداني إلى الإسلام
قبل أن أعرف المسلمين .

شبهة تناقض القرآن

شيء آخر يأخذه خصوم الإسلام ، ليخدعوا به السذج : . وقبل أن نعرض لذلك الشيء نقول : إنه يجب على ولي الأمر حاكماً كان أو أباً أو معلماً أن يبصر من تحت يده من الأبناء والنساء بأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها . . لأن هذه سنة القرآن .

فالقرآن عرض علينا أباطيل خصوم الدين ، ورد عليها . . لأنه لو ترك القضايا تفد علينا من غيره لدخلت علينا بغير دليل على بطلانها . . إذن لا بد من عرض هذه القضايا ومعها دليل البطلان ، لئلا تنفرد القضايا بالقلب .

حينما يفد علينا مرض ، ونريد أن نتحصن منه فإننا نذهب إلى المرض نفسه ، ونأخذ الميكروب في صورة غير شرسة ، ونعطيه للناس في صورة « حقن » . وأولياء الأمور من علماء ومدرسين وآباء ، عليهم أن يعرضوا هذه القضايا من جهتهم ، ولا يدعوها تفد إليهم من ورائنا ، لأننا إن هوجمنا من الخلف هوجمنا بشراسة .

وكثير من الناس يستنكفون أن يذكروا هذه القضايا لأبنائهم ، لئلا يلفتوا أنظارهم إليها ، وهذا خطأ ، لأن وسائل الإعلام شتى ، فإن احتطت ألا تفد هذه الوافدات عن طريقك ، فإنك لا تستطيع أن تمنعها من الوصول من غيرك وعن طريق وسائل الإعلام .

وخصوم الإسلام يقولون : إن القرآن الذي يرفعه المسلمون إلى مرتبة التقديس ليس من عند الإله . . لأن الإله لا يمكن أن يتضارب ، وهذا القرآن متضارب في كثير من آياته ، وعدوا عشر آيات ظاهرها التضارب ، وعنونوها « سفر البرهان في متناقضات القرآن » . وعرضوها بغير سليقة العربي ذي الملكة الذي يفهم الأسلوب ويدرك مراميه .

عرضوا قول الحق سبحانه ليشككوا في القرآن ذاته : ﴿ ولا تزر وازرة

وزر أخرى) (١) وقالوا : تلك قضية قرآنية . وقالوا : ثم يسهب محمد أنه قال هذه الآية ، فينطلق لسانه بآية أخرى تناقض هذه الآية هو قوله :
(ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) (٢) .

فكيف لاتزر وازرة وزر أخرى ، ثم يحملوا أوزارا مع أوزارهم ؟
هم معذورون ، لأنهم لم يتمرسوا بفهم الأسلوب العربي ، أو هم فاهمون ، ولكنهم يحاولون أن يدخلوا على الناس بهذا ، لأنهم سيخاطبون ناشئة ، هذه الناشئة ليس عندها بصر بأسلوب اللغة .

فنقول لهم : لاتضارب ، لأن الدين الإسلامى دين ذاتى ، بمعنى أن الإنسان لايعاقب إلا على فعل فعله باختياره غير مكره عليه فى زمن يكون التكليف فيه موجوداً . ومعنى التكليف هو البلوغ والعقل إلى آخر الشروط الموضحة فى مواضعها من الشريعة ، مما يدل على احتياطات الإسلام فى مسألة الجزاء .

فهو لم يكلف إلا من نضج عقله . . وآية نضج العقل : استكمال البنية الإنسانية بالبلوغ ، لأنه لوكلف قبل ذلك ثم طرأ عليه البلوغ ، والبلوغ ظاهرة جنسية عارمة ، ربما قال : هذه لم تكن عندى ساعة تعاقدت على الإيمان . أنا الآن أجد فى جسمى أشياء أخرى .

والنضج فى كل شىء حى هو أن يقدر بذاتيته على أن يتجنب مثله ، ولذلك فمن رحمة الله بنا من أجل بقاء الأنواع أن الثمار كلها فى أصل تكوينها إنما تكون من أجل حماية البذرة التى فى داخلها . . ولاتنضج الثمرة وتكون حلوة إلا إذا نضجت البذرة فيها .

فأنت إذا شققت بطيخة ووجدت اللب أبيض ، فهى ليست حلوة ،

(١) سورة الأنعام آية : ١٦٤ .

(٢) سورة النحل آية : ٢٥ .

أما إذا وجدته أسود لامعاً فهي حلوة . . وقطف العنب إن كانت بذرته ناضجة فهو حلو ، وإلا فلا . . وكذلك الإنسان لا ينضج إلا إذا كانت عنده القدرة الذاتية على الإنجاب . وهذا هو التكليف :

فإذا أكرهته على الفعل رفع عنه التكليف ، وهذا هو الضمان للعدالة الجزاء . ويشترط أن تكون أداة الاختيار بين البديلات وهي العقل سليمة : وهذا التحري الدقيق للعدالة معناه أنني لا أحمل وزر سوى .

لكن الوزر الذي يفعله الشخص قد يظهر أثره في غيره . فالذي يفضل يفضل بذاته ، من غير أن يتعدى ضلاله إلى الغير . . ولكن حين يريد أن ينقل ضلاله إلى الغير فإن له عمليتين حينئذ :
وأنه ضل في ذاته .
وأنه أضل غيره .

فحين يفضل غيره فهذا عمل جديد ، وهو حينئذ يحمل وزر ضلاله في ذاته ، ووزر إضلاله لغيره ، وهذا وزر مع وزره ، هو أنه ضلل الغير . فهناك فرق بين وزر الضلال ، ووزر الإضلال : وهم لا يفهمون ذلك .

ألم يروا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » ؟

لأنها ما دامت سنة فقد أصبحت أسوة : ولذلك شرع الإسلام ستر بعض الجرائم ، لأن إشاعتها تعطى أسوة في الشر : فيسترها ، ويأمر بعدم التنقيب عن عيوب الناس ، لئلا توجد الأسوة في الشر ، فإن وجدت أسوة في الشر فالذي صنعها هو الذي كشف عنها وأشاعها :
إذن فالمسألة الأولى من كتاب سفر البرهان في متناقضات القرآن منقوضة :

وبعد ذلك يعرضون قضية الحقوق الأبوى ، قالوا : إن القرآن يحض

الناس على أن يعاملوا آباءهم معاملة سيئة وقاسية . وعرضوا الآية :

(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم) (١) .

ثم يقول : ويؤخذ محمد بعد ذلك بعاطفة من حنان تجعله يسهو فيقول ثانياً :

(وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) (٢) .

ونقول لهم : وما ذنبنا نحن إن كان هؤلاء لا يفهمون العربية ، لا بسليقة اللغة ، ولا بإتقان الصنعة ، نريد منك أن تخبرنا في لغتك : ما هو الود؟ وما هو المعروف؟ فالآيتان لم تردا على شيء واحد ، بل جاءت الأولى في الود ، وجاءت الثانية في المعروف. ولو أن الآيتين وردتا على شيء واحد ، لأمكن أن يقال : هناك تناقض .

ما هو الفرق بين الود والمعروف؟

الود : حب القلب . وحب القلب يدعو إلى انجذاب القلب بتبعاته من كل مظاهر الحب . والمعروف : بذل القلب .

المعروف تصنعه مع من تحب ومن لا تحب . وتبعات الود لا تصنعها إلا مع من تحب . فالأب الكافر لا يحبه المؤمن بالقلب ، ولكن يصنع له المعروف ، لأن الابن مأمور بأن يكون صاحب معروف حتى مع أعدائه :

الود القلبي يترتب عليه المعروف . أما الود فلا يترتب عليه الود القلبي ، ووقائع الإسلام الدالة على ذلك كثيرة .

فسعد بن أبي وقاص حين أسلم حلفت أمه ألا تأكل ، ولا تشرب ،

(١) سورة المجادلة آية : ٢٢ .

(٢) سورة لقمان آية : ١٥ .

ولأ تغسل ، ولا تقوم من الشمس . . فقال سعد لقومه : دعوها ، فإن آذاها القمل اغتسلت ، وإن عضها الجوع أكلت ، وإن أصابها الظمأ شربت . وقال لها : يا أمي ، والله لو أن لك مائة نفس ونفس ، ثم فاضت منك نفساً نفساً على أن أترك دين محمد ما تركته .

هذا هو الذي صنعه الإيمان .

الحب لا يتسع لأمرين أبداً ، لأن الله يقول : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ (١). ولذلك حينما يطلب الله من المؤمن ألا يجعل حب الدنيا في قلبه ، فلأن الله يريد أن يكون قلب المؤمن منزله ، ولا يريد أن يجعل معه في القلب سواه .

والدليل على ذلك : أن الذين آمنوا خلعوا من قلوبهم الود لكل كافر ، ولو كان وداً عزيزياً أو عاطفياً كما حدث من سعد .

وهناك مثل آخر . . ففي موقعة بدر كان سيدنا أبوبكر بجانب النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن له كان ما يزال كافراً يحارب معهم في صف ضد أبيه . ثم أسلم الولد بعد ذلك فقال الولد لأبيه :

يا أبت لقد رأيتك يوم بدر ، فعزفت عنك مخافة أن ينالك شيء . فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله يا بني لو تراءيت لي يوم المعركة لقتلتك .

كلاهما صادق ، لأن أبا بكر يقارن بين بنوة وربوبية . . فيرجح عنده جانب الربوبية . . ولكن ابنه يقارن بين أبيه وبين لا شيء . لأنه تبين أنه لا يؤمن بأصنامهم ، وإلا لدخلت في المقارنة ، بدليل أنه تركها وأسلم . كل ذلك دليل على أن الحب الإيماني إذا تمكن في القلب لا يوجد فيه فراغ لأن يحب شيئاً آخر .

(١) سورة الأحزاب آية : ٤ .

ونحن نلاحظ أم حبيبة بنت أبي سفيان . وأبو سفيان رجل له مكانته وسيادته ، وكان يقال له : سيد العير . وأم حبيبة حين أسلمت وهاجرت مع زوجها - وكانت تحبه - وشاء الله أن يخلصها للحب له وحده ، والإيمان به ، فأغراه أحد الأحباش بالنصرانية فتنصر ، وبقيت هي على دين الإسلام .

إذ ثبت أنها آمنت لا لأن زوجها آمن ، وهاجرت لا لأن زوجها هاجر ، لذلك لم يكن لها من مكافأة عند الله وعند رسوله إلا أن يطمئنها إلى أن العوض عند الله ، فعوضها عن زوجها الذي تنصر ، بأن تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تذهب إلى هناك . بل جعل النجاشي يعقد لها عليه ، حتى يعجل لها بالعوض ، وأصبحت أمًا للمؤمنين . وحين تصبح أمًا للمؤمنين يكون قد ألزم كل المهاجرين بأن يكونوا في خدمتها ، وطوع إرادتها . يذهب زوجها ، فيصبح المسلمون في الحبشة كلهم رعية لأم حبيبة .

وبعد ذلك تأتي إلى المدينة ، ويذهب إليها أبوها ، فتمنع أبا سفيان من أن يقرب فراش رسول الله ، لأنه مشرك ، وهذا هو ما يفعله الإيمان في القلوب .

فلا يوجد ود في قلب مؤمن لغير الله ، ولغير من يشترك معه في حب الله ، والإيمان بالله ، الود العاطفي والجسدي يذهب ، ويأتي الإيمان كما حدث لمصعب بن عمير رضي الله عنه .

ومصعب بن عمير تربى في النعيم ، ولما أسلم عاش الكفاف ، ولكنه كان أول داع إلى الإسلام في المدينة . والتقى بالكفار في غزوة بدر ، وكان له أخ اسمه أبو عزيز يحارب مع الكفار ، وقد وقع أسيرًا في يد أنصاري اسمه « أبو اليسر » . ومر عليه أخوه مصعب وهو أسير ، فقال لآسره : اشدد على أسيرك ، فإن أمه غنية ، وستفديه بمال كثير . فقال أخوه له : أهذه وصاتك بأخيك ؟ قال مصعب : هذا أخي وليس أخي ؟

من هنا تعلم أن الود الإيماني عمل قلبي بحت ، والمعروف إحساني لمن تحب ومن لا تحب .

وقالوا : إن قرآن محمد تعرض لقضية كونية ما كان أغناه أن يتعرض لها. لأنها ليست من مهمة الإيمان ، ولكن يشاء الله أن يوقعه فيها حتى تكون حجة عليه . قالوا : إن القرآن يتكلم عن خلق السموات والأرض . ويقول إن الله خلقهما في ستة أيام .

وهذا يعطينا أن خصوم القرآن يقرءون القرآن ، ويعملون الإحصائيات حتى يفهمونا أنهم يتكلمون عن دراسة ، وأنهم يستخرجون ما لا يستخرجه المؤمنون ، لأن المؤمنين يقرءون القرآن بقداسة أنه من عند الله .

ونقول : إن إعلان خصوم الإسلام عن هذه القضايا مقصود لله تعالى ، حتى يظهر إعجاز القرآن ، ويظهر أنه من عند الله على مر العصور كما قال الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

إذن « فالمعطيات » التي صنعها أهل الكفر هي التي دفعت أهل الإيمان إلى الرد عليها ، فبدا جمال الدين ، وجلال القرآن .

آيات القرآن تنص على أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام . ولكن آية واحدة اكتشفها أعداء الإسلام بزعمهم وقالوا : إنها فضحت محمداً قبحهم الله . وهي قوله تعالى :

﴿ قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ﴾ (١)

ووضعوا تحت يومين خطين ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ﴾ (٢) ووضعوا تحت أربعة أيام أربعة خطوط

(ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين (١). ووضعوا تحت اليومين خطين. وقالوا اقرءوا الخطوط تجدوها ثمانية أيام. إذن محمد سها حتى قال : إنها ثمانية أيام .

نقول لهم : أنتم لم تفهموا معطيات القرآن ، لأنه نزل باللسان الفصيح الوضوح . كل حرف فيه له معان ، والحس الصحيح هو الذى يدرك المعلومة القرآنية الصحيحة . والعربى يقرأ القرآن بملكته ، وساعة يقرأه بملكته يستطيع أن يضع اللفظ فى مكانه المناسب وإن لم يكن منقوفاً .

الذى خلق الأرض فى يومين ، وجعل فى الأرض رواسب من فوقها أى من فوق الأرض ، وقدر فيها أقواتها ، أى أقوات الأرض ، إذن ما يأتى فى كلمة أربعة أيام لخلق ليس ابتداء ، ولكنه تنمة لشيء .

الأيام الأربعة لم تتكلم عن خلق جديد ، وإنما تكلمت عن إتمام شيء موجود ، فالله خلق الأرض فى يومين ، وجعل فيها رواسب وقدر فيها أقواتها فى تمام أربعة أيام ، كما تقول سرت من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات . . فهل يكون المعنى من طنطا إلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات ؟ لا . بل من القاهرة إلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات .

إذن الآية دخل فيها اليومان الأولان فى الأربعة . إذن لا تحسب الاثنين مرتين ، فعندنا الآن أربعة أيام . .

بعد ذلك هناك يومان ، فالمجموع ستة ، فاتفقت آيات الإجمال مع آيات التفصيل وانتهى الإشكال :

* * *

وعرضوا قضية أخرى ، هى أن محمداً يحىء بالفاظ تؤدى معانى ، ولا يفطن إلى وجه التداخل فيها :

يقولون هذا كأنهم يفهمون العربية أكثر من القوم الذين لهم ملكة

العربية ، حتى إن القرآن جاء يتحدى ملكهم . فلو صح ما يقولونه لسهل على أصحاب الملكة من العرب أن يردوا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا كافرين ، ومعارضين له ، ويتلمسون له الأخطاء . فلو كان هناك خلل في البيان لمالأوا الدنيا صياحاً :

ومع ذلك فقد أبى الله تعالى كثيراً من صناديد الأمة كافرين حتى يشحدوا عقولهم للتحدى ، ومع ذلك لم يستدركوا على القرآن شيئاً .

قالوا هناك آية تقول : **(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم)** (١)

وآية تقول : **(ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه)** (٢) .

أليس فعل الفاحشة ظلماً للنفس ؟ وأليس السوء ظلماً للنفس ؟ فكيف يكون العطف بأو وهي تقتضى المغايرة . ما كان هناك داع للعطف بأو ، إلا أن محمداً سها :

نقول : أو تأتى للتخير ، والإباحة ، والتقسيم . وهي هنا للتقسيم .

الذى يفعل الفاحشة أو السوء يحقق لنفسه متعة عاجلة ، وينسى العقاب الآجل . وهذا هو فعل السوء أو الفاحشة . وفي بعض الحالات لا يحقق لنفسه متعة ، وإنما يحقق لغيره المتعة ، وهذا ظالم لنفسه ، لأنه سيعاقب والمتعة لغيره كشاهد الزور مثلاً ، يحقق الفائدة لغيره ، ويبوء هو بالإثم ، وهذا هو ظلم النفس ، فاختلفا .

(١) سورة آل عمران آية ١٣٥ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١١٠ .

القرآن والعلم الحديث

وجاءوا بفرية أخرى هي أن أقوال علماء الإسلام متضاربة في قضايا القرآن فبينما نجد قوماً يتحمسون لكل ابتكار جديد من ابتكارات العلم الحديث في العصور الحديثة ، ثم يذيعون ويشيعون أن القرآن قد سبق إلى هذه القضية منذ أربعة عشر قرناً . وهناك أناس يؤلفون كتباً في هذه المسألة . . . وهذا كلام صحيح .

وهناك علماء آخرون ينكرون قضايا جاء بها العلم الحديث مجيئاً يقينياً ، ومع ذلك ينفونها ، لأن القرآن لا يؤيدها ، ويستدلون على ذلك بكتيبات طبعت بالفعل لبعض العلماء الذين ينكرون كثيراً من قضايا العلم الكونية ، لأن القرآن يتعارض معها ، ويقصدون عرض قضية لا تدل على ما على الأرض ، ولكن تتعلق في نفس جرم الأرض .

وعرضوا كتاباً ألف في هذا الموضوع ، مما يدل على أنهم استوعبوا ما كتب عن الإسلام من رجال الإسلام ، فجاءوا بالمؤلفات التي تقول : إن القرآن يتمشى مع العلم الحديث ، والمؤلفات التي تقول إنه يعارضها وقالوا :

نريد أن نعرض قضية واحدة ، ليست هي ما على الأرض ، ولكن عن الأرض ذاتها .

لقد ثبت علمياً وتجريبياً ومشهدياً وواقعياً أنها كرة ، لا سيما بعد أن عبر الإنسان الفضاء ، وصورها من الخارج فجاءت كل الصور للأرض وهي كروية .

وقالوا : إن هناك كتاباً ألف في بلد يحكمه منطق الإسلام . وأظنهم يقصدون السعودية — وقالوا : إن هذا الكتاب يكذب كروية الأرض ، ويقول عنها : إنها خرافة ، ولكن الأرض مسطوحة ، وجاءوا بالأدلة التي تثبت أن الأرض ليست كروية ولكنها مسطوحة .

ونحن نقول لهم : إن فهم واحد من علماء المسلمين لقضية قرآنية لا يعتبر حجة على القضية القرآنية . . لأن كلمة الحق شيء ثابت ، والشئ الثابت لا يتغير إلى مقابل ولا إلى نقيض . وما دام الشئ ثابتاً فهو مثله فيما مضى وفيما يكون .

فإذا نظرنا إلى الكون وجدنا فيه حقائق كونية ثابتة ، وهي مخلوقة لله ، والقرآن كلام الله ، وما دام الكون من خلق الله ، والقرآن كلام الله ، فوجب ألا تتعارض حقيقة قرآنية مع حقيقة كونية أبداً . فإن تعارضت الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية فإن واحدة منهما ليست من عند الله . وإذا التقت الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية فكلتاها من عند الله .

فإذا وجدنا حقيقة قرآنية تتعرض لأن تهدمها حقيقة كونية ، أو حقيقة كونية تتعرض لأن تهدمها حقيقة قرآنية فإننا نقول : أنتم المخطئون في فهم الحقيقة ، ولا بد أن يعيدوا النظر من جديد ، لتفهموا الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية ، لأن إن وجدت حقيقة قرآنية هي الحقيقة القرآنية ، وحقيقة كونية هي الحقيقة الكونية ، فلا بد أن تتفقا . فإذا اختلفتا فأنتم فاهتم حقيقة قرآنية وهي ليست حقيقة قرآنية ، أو فاهتم حقيقة كونية وهي ليست حقيقة كونية .

ضربوا المثل بكروية الأرض . . ونحن وجدنا بعض العلماء ينكرون هذا ، ويقولون : الأرض مسطوحة . وبعد ذلك جعل هذا الفهم حقيقة قرآنية ، نقول : لا . هؤلاء أخطأوا في أنهم جعلوا فهمهم هذا حقيقة قرآنية ، لأن القرآن لا يعطى هذه الحقيقة ، وقد استدلوا في هذا الكتاب على أن الأرض مبسوطة ، وعلى أن هذا يناقض ما جاء في العلم الحديث من أنها مكورة بقوله تعالى : ﴿والأرض مددناها﴾ (١) وفسروا المد على أنه البسط .

وقال الكاتب : ما دام الله قال : ﴿مددناها﴾ يعني بسطناها ، فإن قلتم إنها كرة فلن نصدق .

هم يؤمنون بالحقيقة القرآنية . . . ويؤمنون بأنه إذا قال القرآن ذلك فلا يمكن أن توجد حقيقة كونية تخالفها ، ولكنهم أخطأوا فيما فهموه هو حقيقة قرآنية ، لأن (مددناها) لا تعطي معنى بسطناها .

فمعنى (مددناها) أنك كلما وقفت على مكان من الأرض وجدت أمامك أرضاً أخرى ، فهي ممدودة ، ولو كانت مبسوطة على هيئة مستطيل أو مثلث أو أى شكل آخر ، فلا بد أن تكون لها حافة ما دامت مبسوطة ، وإن وصلت إلى الحافة انتهى معنى بسطناها ، ولم تعد ممدودة . لكن الله يقول : (مددناها) .

فأنت طالما تقف على أرض فستجد أمامك أرضاً ممدودة ، وخلفك أرضاً ممدودة ، وعن يمينك أرضاً ممدودة ، وعن يسارك أرضاً ممدودة . ولا يتأتى ذلك أبداً إلا إذا كانت مكورة . . فإذا كانت على غير هيئة التكوير لا ينطبق الواقع على قوله تعالى : (مددناها) .

إذن الكاتب المتعصب لقرآنه أخطأ في فهم الحقيقة . لكن لو فهمت الحقيقة لما وجدت هذا التعارض .

ولذلك قلنا : إن كثيراً من الذين يحلو لهم أن يجعلوا العلم الحديث يصادم القرآن يعرضون قوله تعالى :

(إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام) (١)
وقفوا عند قوله : (ويعلم ما فى الأرحام) وقالوا : إن الطب الحديث الآن يعلم ما فى الرحم .

نقول : صدقت ، ولكن من الذى قال لك إن الله حينما قال : (ويعلم ما فى الأرحام) أراد : أذكر هو أم أنثى ، بل هى عامة . يعلم كل ما يتصل بالأرحام ، وليس الذكورة والأنوثة فقط . . ويعلم إن كان الولد طويلاً أو قصيراً ، سعيداً أو شقيماً ، ذكراً أو أنثى ، طويل العمر أو قصيره ، غنياً أو فقيراً . إلى آخر ما يتصل بحياة الإنسان .

أخطأتم في فهم الحقيقة القرآنية ، وهي ليست حقيقة قرآنية ، هل يرسل الحق سبحانه وتعالى أحداً ليأخذ عينة من رحم الأنثى ليحللها ، وبعد ذلك يقول : ذكر هو أم أنثى ؟ لا . بل إنه يعلم ولا يرسل أحداً ليبشر به : هو وحده الذى يبشر : قال تعالى :

(يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) (١)

قال ذلك قبل أن يلتقى زكريا بزوجه :

وهب أن الله كشف عن بصيرة أحد كما حصل لأبي بكر فتنبأ بأن ما فى بطن امرأته أنثى ، فهذا إلهام من الله . فهل الله قال لأبي بكر : اذهب إلى الحمل ، وخذ عينة وحللها لتعلم ؟ لا . فالله يعلم ما فى الأرحام بدون أن يقترب من المرأة . وبدون أن يأخذ منها شيئاً ليحلله .

أما أن يعلموا الأشياء بواسطة مقدمات فلا يقال : إنكم علمتم ما فى الأرحام .

إذن علينا أن نعلم أن الذين يخاصمون الإسلام يستوعبون ما قيل عن الإسلام ، سواء من الذين يفهمون الإسلام حقيقة ، أو من الذين لهم إخلاص للإسلام ، وليس لهم عقل الاستنباط من الإسلام .

وما داموا هكذا فنحن نهيب بمثل هؤلاء ألا يدخلوا القرآن فى مثل هذه المتاهة ما داموا لا يستطيعون الاستنباط فيه ، أو البرهنة على كلامهم ، لأن هؤلاء يأخذونها حجة علينا نحن ، وبعد أن يأخذوها حجة علينا ينقلونها لتكون حجة على الإسلام .

الإنسان على القمر

وجاءوا أيضاً بشيء قامت حوله ضجة عظيمة ، حينما وصل الإنسان إلى سطح القمر ، فبعضهم أنكر ذلك ، وبعضهم أراد أن يدخلها في مدلول القرآن . . من قوله تعالى :

(يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) (١) .

هل كثير من المسلمين وقالوا : إن القرآن قد تنبأ بوصول الإنسان إلى القمر بهذه الآية ، وهو يريد إخلاصاً لدينه أن يبين سبق القرآن لقضايا جاءت في القرن العشرين . لا بد أن يسنده عقل وفكر حازم ، بحيث لا يتورط الإنسان ، فيمكن خصمه منه ، فيكون الذي خسره من الحقائق الثابتة أكثر من الحقائق التي لم يستطع أن يدلل عليها .

هل هذه الآية نص في الموضوع إذن ؟

قلنا : إن مسألة الشمس والقمر لم تأت في الآية . . وإنما الذي جاء هو أقطار السموات والأرض ، أى لا تأخذ أقطار الأرض وحدها ، بل لابد أن تأخذ معها أقطار السموات :

ونحن نعلم بالواقع الفلكي الذي قاله العلماء أن الأرض سيار من السيارات أو تابع من التوابع هو المجموعة الشمسية التي فيها الأرض . وهم قالوا : إن المجرة التي تعتبر مجموعتنا الشمسية منها ، فيها مائة مليون مجموعة شمسية أخرى . ونحن بيننا وبين القمر هذه المدة البسيطة التي لا تتجاوز ثانيتين ضوئيتين . وبيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية . ومع ذلك هي دون السماء الدنيا . فما دخل أقطار السموات في الآية ؟

إن القمر يعتبر ضاحية من ضواحي الأرض ، فما الذي أدخل السماء والأرض ؟

وكلمة (سلطان) في الآية لا يمكن أنه تكون سلطان العلم ، لأنه لو كان معناها سلطان العلم لدخل في استطاعتنا ، وما دام قد دخل في استطاعتنا فكيف يقول الله تعالى بعد ذلك :

(يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (١)

إذن هذه الآية لا تنطبق على هذا الواقع .

فعلى العلماء أن يبحثوا عن فهم الحقائق حتى لا يرتد فهمهم ضدهم .
يقولون : ما معنى الاستثناء في قوله : (إلا بسلطان) ؟

معنى الاستثناء أنه ليس سلطان الناس ، وإلا لم يرسل الله شواظ النار والنحاس . فرسول الله صلى الله عليه وسلم عرج به إلى السماء السابعة وما فوقها فلو لم ترد كلمة (إلا بسلطان) لكذبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعراج . فالمعنى على هذا : إلا بسلطان منا . هو سبحانه الذي يلغى القوانين ، ويلغى النواميس ، ويجعل واحداً منكم ينفذ إلى أقطار السموات ويكون صادقاً .

فيجب على العلماء ألا يغفلوا بإخلاصهم عن كثير من الملامح حتى لا ينخسروا أكثر مما يكسبون .

وعلى هذا يجب أن نفرق بين الحقيقة على أنها حقيقة ، وبين الأمر بظن أنه حقيقة . إذن فالتصادم بين القرآن والكون جاء من شيئين :

الأول : أن تعتبر حقيقة قرآنية وهي ليست حقيقة قرآنية . وهذه فعلتك أنت .

الثاني : أن تعتبر حقيقة كونية ، وهي ليست حقيقة كونية :

فإذا ما انتهيت إلى أن هذه حقيقة قرآنية بمقاييس الحقيقة ، وهذه حقيقة كونية بمقاييس الحقيقة ، فلا بد أن يلتقيا .

الشك في الرسول

وآخر ما أذاعه المفترون على الإسلام أن قالوا : إنكم تؤمنون بأن محمداً مبلغ عن ربه ، والواقع ينقض ذلك ، لأن محمداً نشأ في جزيرة العرب ، مع إخوان عاصروه ، ومن الإخوان الذين عاصروه عمر بن الخطاب . والرسول نفسه يقول لعمر : « أوشك أن يصيبنا شر في خلافتك يا عمر » . كان ذلك في مسألة الأسرى ، وكان عمر أشار برأى ، وأبو بكر أشار برأى ، فأخذ الرسول برأى أبي بكر ، فلما نزل قوله تعالى :

(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (١) .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « كاد يصيبنا شر في خلافتك يا عمر » .

قالوا : إذن فعمر كان له رأى أصح من رأى محمد وأبي بكر . إذن فقد ثبت أن مثل محمد من العرب يستطيع أن يأتي بأشياء عجيبة ومنتبهة ، بدليل مسألة عمر هذه ، وبدليل أشياء كثيرة سبق فيها عمر القرآن . . هذا قولهم مع نخطهم في سبق عمر للقرآن . بل هو موافقة القرآن لعمر .

نقول : هذا صحيح . . . مثل اتخاذ مقام إبراهيم مصلى أو مثل الحجاب . وغيرها ، وهذه ملحظيته لو أن الناس فطنوا إليها لأكد ذلك صدق القرآن فيما يأتي من القضايا التي تتصل بالفطرة السليمة . فكان القرآن ترك لمثل عمر أشياء يقترحها بفطرته الصافية ، ليدل على أن الفطرة الصافية تصل ما بينها وبين تشريع السماء .

ولكن أين كانت فطرة عمر الصافية يوم أراد أن يقتل رسول الله ؟ أين كانت فطرته الصافية يوم عاداه ؟ ويوم أن ذهب إلى أخته ليقتلها لأنها أسلمت ؟

إذن فالفطرة الصافية هي التي نفى عنها الإسلام غبار الجاهلية ،

ولو تركت بغير إسلام لكانت فطرة منطمسة . فالإسلام أزاح عنها الغشاوة التي لحقتها ، والتراكمات التي أحدثتها الجاهلية ، ولذلك يقولها عمر نفسه : « من أنا لولا الإسلام ؟ »

ما العلة في أن يكون عمر موجوداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله يوحى إليه ، فيقترح عمر أشياء ، فيأتي بها القرآن ؟ هذا هو الذي يجب أن يسأل عنه .

العلة : أن الله يريد أن يقول لنا : أنا لم أتعبكم بشيء يخالف الفطرة السليمة ، ولو أن فطرة سليمة فكرت بحق لوصلت إلى ما يريد الإسلام من تشريع ، ولكن من يضمن أن الفطرة صافية ؟

إذا جئت بمصباح تملؤه أتربة وأوساخ ، فإن الضوء يحجب من المصباح ، أما إذا أزحت هذا الغبار فإن نوره يسطع .

وأنت لم تأت بزيادة سوى أنك صقلت الفطرة ، فتجلت الفطرة بنصاعتها الطبيعية ، فكأن الله تعالى بتركه كثيراً من القضايا ليكتشفها تابع من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، أخلص فكره للدعوة والله ، وصقلت فطرته ، يقول لنا : إن هذه الفطرة تستطيع أن تصل إلى قضايا الدين ، فالله تعالى يثبت لنا أن هذه المسائل لو لم تنزل من السماء لنبعت من صفاء الفطرة في الأرض .

الخاتمة

وبعد : فلعلنا نكون قد وفقنا إلى عرض كثير من المقترحات المعدة لنا ،
والتي وفد بعضها ، ويوشك بعضها أن يفد إلى بيئاتنا الإسلامية .

وإذا كان هذا هو ما أعلن من توصيات المؤتمر ، فما بالك بما لم يعلن
مما قيل عنه : إنه سيعلم في حينه . ؟ بالقياس إلى الأشياء المعلنة ، لا بد أن
هناك أخطر من هذا بكثير .

كل هذا شاء الله أن يتسرب إلينا هذا الشيء ، (وما يعلم جنود ربك إلا
هو وما هي إلا ذكري للبشر) (١) فإذا كان الله كما فصح سابقاً بورتوكولات
حكماء صهيون بواسطة داعرة ، وكانت الأوراق في حقيبة سكرتير اللجنة ،
وكان يبيت معها في سكر شديد ، ففتحت الحقيبة لنرى ما فيها ، فباعث
الأوراق ، وانكشف المستور ، فإنه قد فصح هذه البيانات كذلك بصره ،
وبقدرته الفائقة .

وذلك لأن الله يريد الإسلام محفوظاً ، فيجب أن نعيد من تسربها إلينا ،
وأن نعمل جاهدين على أن نستعملها بالمناعة الإيمانية ، والحصانة الإسلامية ،
وهذا لا يكون إلا إذا تكتلنا جميعاً بحيث نقف أمام هذه الوافدات وقفة
ونحن يد واحدة تتمثل في أولياء الأمور .

فعلى أولياء أمور النشء أن يعرضوا هذه القضايا على أبنائهم ، ويعلموهم
كيف يردون عليها ، وعلى الشباب كما يفزعون في مطلوباتهم المادية إلى
ذوهم أن يفزعوا في مطلوباتهم القيمة إليهم أيضاً ، لأن مقومات القيمة
أكبر من مقومات الدنيا .

وعلى أولياء الأمور أن يحسنوا إعطاء المناعة لأبنائهم إن علموا الرد . .
وإن لم يعلموا فعليهم أن يذهبوا إلى أهل الذكر ، ليأخذوا منهم الردود التي
تقف أمام هذه الوافدات .

وأما العلماء فعلى من كان منهم من الدعاة أن يكونوا على ذكر من
هذه القضايا، وكل منهم يبصر بما له من علم مايراد بالإسلام من الكيد، وأن
يعرض هذه الوافدات مع الردود عليها ، وأن يبالغ في تكرارها حتى
تستقر في أذهان الناس ، ناشئهم وكبارهم على السواء .

وعلى العلماء أن يلاحظوا أنهم حين يتكلمون عن الإسلام فعليهم أن
يجهدوا في أن يكون إسلامهم مصنى ، لأن الخلاف يستغل في أن الإسلام
ليس له خط واضح يجتمع حوله الناس .

وعليهم بعد ذلك أن يجتمعوا من كل بلاد الإسلام ليتفقوا على رأى
واحد في المسائل الخلافية ، وحينئذ لا يجوز للمعارض أن يعلن رأيه بعد
الاتفاق .

احموا الإسلام أيها العلماء من هذه الخلافات ، ، فتلك ميزة الفتوى
الجماعية .

لم يعد العصر يحتمل أن يكون لكل عالم فتوى، وإلا لأصبح لكل عالم جمهور
ولكل عالم متعصبون ، وحين يوجد ذلك فهم من الذين فرقوا دينهم وكانوا
شيعاً . . . فيجب أن يعاملوا دينهم كما يعاملون قضاياهم السياسية .

ويجب على حكام المسلمين أن يعلموا أنهم بتركهم هذه الأمور فكل
إنسان هاو وسيكون له إسلام ، وسيمثل الإسلام في السلطة المركزية ،
حتى يكون لكل واحد منهم عبادة ومساجد ، وكل هذا سيفت في عضد
الإسلام والمسلمين .

ولو أن الحكومات كانت إسلامية بحق لكان للدين المكان الأول فيها .

ما بالهم يتكاسلون حتى لا يسيطر الدين على حركة الحياة . . فليفتنوا إلى هذا ، وإلا فليعاود الحكام إيمانهم ، ولا يكونون مسلمين صورة فقط .
وليعلم الجميع أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، لأن الله يزع المتقين بالقرآن ، ويزع العصاة بالسلطان ، والدنيا تريد من يصلحها الآن ، ولو جعلنا الأمور كلها تتأخر إلى الآخرة لفسدت الحياة .

وليفهم الجميع أنه لا يكفي أن يكون عندنا إسلام ، بل يجب أن يكون الإسلام في أيد مسلمة . قال الشاعر :

وعادة السيف أن يزهو بجوهره وليس يعمل إلا في يدي بطل
يجب ألا نغمد إسلامنا .

يجب أن نسل إسلامنا ليقف أمام جنود الباطل وقفة ترد كل واحد إلى حجمه الطبيعي . وحين نفعل ذلك يعلم الناس جميعاً أن للإسلام صاحباً .

والرسول صلى الله عليه وسلم يضع الأمور وضعا طبيعياً فيقول :
« الإسلام إس ، والسلطان حارس ، وما لا أس له يهدم ، وما لا حارس له ضائع . »

ويجب أن نعلم أن الحال الذي ينتظم الدنيا كلها حال غير طبيعي مع الارتقاءات الشائعة في الدنيا .

إن الأمر الطبيعي أن يكون كل ارتقاء عاملاً من عوامل ازدياد أمن الناس وسلامهم وطمأننتهم وخيرهم ، أما أن يكون الارتقاء عاملاً فزع واضطراب وحروب وتخريب وتدمير وتهديد وقلق فهذا أمر ليس طبيعياً .

والسبب في هذا كله أن هناك شيئاً مفقوداً . . وإذا بحثنا عن المفقود لم نجد إلا أن منهج الله مضيع في كل مكان من الأرض .

فالمسيحية حتى في البلاد المتحضرة ليست هي المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام ، وإنما هي مسيحية سياسية . هي فكر سياسي ولكن الدين ستار فقط .

وعلينا أن ننظر في عالمنا الإسلامي ، وسنجده كذلك مضطرباً قلقاً ،
والكل أغفله في الدول التي تريد أن تنمو . . . لقد وجد من المسلمين
طائفتان تتقاتلان ، ولم توجد الطائفة الثالثة التي تصلح .

الله لا يمكن أن يتغير من أجلنا ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا
ما بأنفسهم ﴾ (١) فيجب أن نتغير نحن من أجل الله . . . وإلا فسيظل أمرنا
كما هو ، وسيزداد كل يوم سوءاً على سوء .

وحين نلتفت إلى أننا قصرنا عن واجبات ديننا فذلك أول الشفاء . أما
إذا تكبرنا فلا أمل في الشفاء .

أسأل الله أن يبصر المسلمين بأهمية دينهم ، وإلى الخطر الذي يحدق بهم
من خصوم الإسلام من الشرق والغرب ، فهما يريدان ذل الإسلام ،
ولا يجتمعان إلا كان الضحية الإسلام .

لا نجاة لنا إلا إذا مشينا إلى الله . وإذا مشينا إلى الله خطوة أتى الله إلينا
هرولة . . .

والسلام عليكم ورحمة الله . . .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
١١	مقدمة بقلم / عبد القادر عطا
١٩	مؤتمرات التشكيك في الإسلام
٢١	وافد الإلحاد
٣٥	الوحي والرسول
٣٧	تعريف الوحي
٤٠	العلاقة بين الوحي والرسول
٤١	عطاء الله لرسوله
٤٢	الرسول والتشريع
٤٤	معنى « وما ينطق عن الهوى »
٤٦	قصة زيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٧	زوجات الرسول
٤٩	حكمة زواج الرسول بتسع وإبقاء عليهن
٥١	استغلال قضايا المرأة
٥٤	مهمة المرأة ومهمة الرجل
٥٦	معنى خلق المرأة من ضلع أعوج
٥٨	عمل المرأة
٥٩	قصة موسى مع المرأتين
٦١	المرأة تعشق التستر وتعشق الاحتجاب
٦٣	لا يؤمن أحد حتى يكون الرسول أحب إليه من نفسه
٦٤	الفرق بين الحب العقلي والعاطفي

الصفحة	الموضوع
٦٥	التشريع الإسلامى كرم المرأة حين أمرها بالقرار فى البيت وعدم التبرج
٦٧	حوادث باكستان وحوادث أندونيسيا
٦٨	شبهة الميراث والرد عليها
٧١	شبهة الطلاق والرد عليها
٧٥	تعدد الزوجات
٧٦	التعدد لا يأتى إلا عن فائض
٧٧	التعدد والعدالة
٧٩	الله أباح التعدد لمن لم يخف الظلم
٨٠	لماذا جامل الإسلام الرجل فعدد له المرأة ولم يسو المرأة به فيعدد لها الرجل؟
٨١	المرض الخبيث لا ينشأ إلا من تعدد ماء الرجال فى المحل الواحد
	ثلاثة الأثاقى وهى قولهم أن الدين لم يعد مجمعا بل آل إلى أن يكون
٨٢	مفرقا ! والرد عليها
٨٣	أسباب نشأة هذه الظاهرة
٨٤	الكلام على الديكتاتورية
٨٥	الديكتاتورية والديمقراطية وميزة الإسلام عليهما
٨٧	آفة وجود المذاهب
	المسلمون الآن هم الذين فتحوا الباب ليدخل هؤلاء الملاحدة ليهدموا
٨٨	لنا قضية إيماننا...
٩١	قصة صلاة العصر فى بنى قريظة وقضية الخلاف فى رأى
٩٤	التحقيق والتطبيق للإسلام
٩٤	أى الإسلام حق إسلام مساجد الأوقاف أو المساجد الأهلية
٩٥	الصلاة على رسول الله فى الأذان سراً أو جهراً
٩٦	هل يجوز إضافة السيادة إلى رسول الله فى الصلاة؟
٩٨	القبور فى المساجد
٩٨	تفسير كلمة مقصورة
١٠٠	صور من الربا

الصفحة	الموضوع
١٠١	هل الدين مخالف للعرض
١٠٣	فرية تضارب الرسول مع القرآن والرد عليها
١٠٤	العالم تسوده الآن موجتان موجة نظرية وأخرى عملية
١٠٨	ظلم العلماء
١١٠	الإسلام والتخلف الحضارى !
١١٦	شبهة تناقض القرآن والرد عليها
١٢٥	القرآن والعلم الحديث
١٢٩	الإنسان على القمر
١٣١	الشك في الرسول
١٢٣	الخاتمة وفيها فوائد جمّة

رقم الإيداع ١٦٥٤

مطابع سجل العرب

في هذا الكتاب

- * زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم
- * استغلال قضايا المرأة
- * مهمة المرأة ومهمة الرجل
- * المرأة تعشق التستر والاحتجاب
- * الفرق بين الحب العلى والعاطفى
- * تعدد الزوجات وشبهة الطلاق
- * القبور وبناء المساجد عليها
- * الربا .. وصور منه
- * ظلم العلماء
- * الانسان على القمر
- * القرآن والعلم الحديث



ت: ٣٥٥٣٨٣٨

Bibliotheca Alexandrina



0396406

١٥٠ ق ٢٠